كلاديس مطر

قانون مريم

رواية



ورد

• كلاديس مطر
• قانون مريم
• جميع الحقوق محفوظة © Copyright
• الطبعة الأولى 2012
• موافقة وزارة الإعلام رقم 9756
• الناشــــــــــر: ورد للطباعة والنشر والتوزيع
سورية - دمشق ☎ 5141441
• الإشــــراف الفني: د. مجد حيدر
• التـــــــــوزيع : دار ورد ☎ 5141441 ص. ب 30249

كلاديس مطر

قانون مريم

(ثالوث الحب والحرب والتاريخ)

رواية

إلى كل من لم تلوثه الغربة ولا التهجير أو السياسة والحروب.

1

اسمي مريم، من ناحية النسب، ابنة عائلة سورية متعلمة. من ناحية حسن الطلعة، يقول خطيبي اللبناني حازم إنني أجمل امرأة وقعت عيناه عليها. من ناحية الثقافة، لم أعد أذكر عنوان شهادتي الجامعية لأن ما حصلته لاحقاً من تعليم ودراسة ومطالعة كان أكبر بكثير. من ناحية الدين، مسيحية بالولادة وعلمانية بالقناعة. من ناحية الحرية، مدللة في بلدي، وعيت على الدنيا في الوقت الذي تم فيه تعديل دستور البلاد فأتى لصالح المرأة وحرية الأديان. أنا امرأة، يقول الدستور، «تكفل الدولة مساهمتي في كل أشكال الحياة وتعمل على إزالة كل القيود التي تمنع هذه المشاركة». من ناحية السعادة، انتصرت مرة، عندما كنت في الثلاثين، على نوبة عصبية كادت تودي بي بسبب من قوة إرداتي وتمسكي بالحياة، أما من ناحية الحب فمكتفية بما لدي مع ميل دفين غير مفهوم يتراءى من وقت لآخر يسر لي بالعزوف عن كل الدنيا.

أقطن في مدينة اللاذقية على مسافة 250 كيلومتر من بيروت، مدينة حازم الجميلة، يربط بيننا درب ساحلي متوسطي طويل يمتلىء طرفاه بخيم الخضار البلاستيكية الكثيفة وآثارالمعارك القديمة المطفأة التي اشتعلت فيما مضى ولهجات محلية متشابهة وخيم للغجر ومعامل تسمم الجو بالدخان المتصاعد من مداخنها

العتيقة. تفصل بين المدينتين أيضاً خيوط من القرابة العائلية ذات الألقاب المتشابهة التي فلقتها إلى نصفين المعاهدات الفرنسية والانكليزية في الربع الثاني من القرن الماضي الأمر الذي يشبه جدار فصل افتراضياً كرسته هذه النزعات الوطنية الحادة اللاحقة.

كانت اللاذقية قرية صغيرة تسمى راميتا تابعة لولاية أوغاريت في القرن الرابع عشر قبل الميلاد تمتد من المرفأ الحالي وحتى «تل الطابيات»، تمتلىء بالصيادين والمراكب الصغيرة التي كانت تعود مع أفول الشمس وهبوب نسائم الليل الرطبة. أخذت راميتا الصغيرة تنتقل من يد إلى أخرى، وفي كل مرة كان غزاتها يبدلون اسمها ويعطونها سمة أو يلقون عليها حظوة ما إلى أن دخلها العرب فأطلقوا عليها لاذقية العرب لتمييزها عن بقية المدن البيزنطية التي كانت تحمل الاسم نفسه. ولم يشفع للمدينة أن النقود البرونزية والفضية كانت تصك باسمها عندما كانت هيلينية، أو معفاة من الضرائب وتتمتع بحصتها من الحنطة عندما كانت رومانية، من انهيارها إثر زلازل كبرى كان سادسها عام 1822 عندما كانت المدينة عثمانية فانهارت أبنيتها وجزء من برج مرفئها وأصبح من العسير لرئة المدينة المائية من أن تستقبل وتودع المراكب التي كانت تأتي واثقة لتنقل «تبغ» المدينة التي اشتهرت به في كل الدنيا والذي كانت تخزنه في مستودعاتها بالقرب من المرفأ، في مكان سمي «خان الدخان» والذي تحول اليوم إلى متحف للمدينة ممتلىء بالتماثيل الرومانية المفقوءة العينين، العاجية، الراضية والمقطوعة الأيدي ولقى فخارية وحلي حزينة صدأت بفعل القِدم وخرائط وبقايا أسلحة ورائحة الفرنسيين الذين كانوا يستعملون المكان كمركز لمتصرفيتهم.

تعرفت على حازم في اللاذقية، قبل مقتل «رفيق الحريري»

بشهرين. كان قد أتى من بيروت في زيارة عزاء لأحد أصدقائه في المدينة. لمحته جالساً في آخر صف يفصل مجلس الرجال عن النساء، بينما كان يفصل بيني وبينه ثلاثة كراسي فارغات وإحساس يقيني من قبلي أن عالمي هو خارج إطار الحب وإقامة العلاقات العاطفية.

حين توجه إليَّ بالحديث استغربت نبرة الود في صوته وكأنه يعرفني منذ زمن بعيد. لقد كان أكثر وسامة من قدرتي التطلع فيه. أما صوته فقد سمعت فيه الألعاب النارية في سماء بيروت، بيروت التي أعرفها كما أعرف باطن كفي. وهكذا استدرت لأجيب على أسئلته البسيطة والغريبة التي لم يكن لها مبرر سوى هذا «الود» الذي انفجر فجأة في مكان العزاء.

أكملنا حديثنا في المساء نفسه وهو في طريق عودته إلى بيروت. كنا قد تجاوزنا الرسميات خلال ساعة فالتة من الزمن، وها هو الآن يقول إنه اشتاق لي وإنه يتمنى العودة في الحال وإن القمر المعكوس على صفحة بحر طرابلس جعل قلبه ينفطر. أي جنون هذا فالت من عقاله!

عندما وصل إلى بيروت كان قد أخبرني أنه رأى في الحلم القديسة «جان دارك» تريه وجهي على صفحة غيمة أو ماء منساب لكنه لم يكن يعرف من أنا إلى أن رآني في العزاء فعرف أن الأمر يتجاوز القضاء والقدر إلى خطة إلهية مسبقة أسست للقائنا أنا السورية وهو اللبناني في لحظة هاربة من الزمن.

وفي صباح اليوم التالي اتصل من جديد ليقول إن معاهدات فصل البلدين كانت مؤامرة شخصية ضده وها هو الآن يعيد الأمور إلى نصابها. كانت طريقته في الكلام حاسمة وكأن كل شيء كان معداً سلفاً في عقله. لقد وصلته الإشارة من الحلم، حلم قديم

وفجأة يراه يتحقق أمامه، إذاً لماذا الدخول في هذه الخطوات التمهيدية التي تميز البدء في علاقة حب. لقد كان حازم يقفز أميالاً في هذه العلاقة كل ثانية بينما كنت أنا بطيئة كالسلحفاة بسبب ريبتي في الأمر. لكن طيبته كانت حقيقية جعلتني أقبل بكل ما قاله لاحقاً. فلم يمض شهر إلا واندمجت في هذا المناخ الجميل الذي خلقه، حتى أنني قبلت كفه المقلوبة التي دفعها أمامي عندما أسر لي مرة في لحظة صفاء مذهلة أنه كان «بطريركاً» منذ ثلاثمئة عام في واحدة من المقاطعات الفرنسية. لقد كان حائراً وخائفاً من ذاكرته كما قال لي. فهو لا يحلم وإنما يرى مشاهد بأكملها يعتقد أنها حدثت معه فعلاً في حياة سابقة وأنا كنت جزءاً من أغلبها..!

صدقته لأني أفهم تماماً كل كلمة قالها ومن أين مصدرها. وهكذا أحببته وتحول في يوم وليلة إلى جزء مني، خفي، غريب، قدري، لكن مريب أيضاً. لقد جعلتني سرعته أعاين كل ما يحصل وكأنه أضغاث أحلام.

كان حازم محرراً في الصفحة السياسية من جريدة (النهار) اللبنانية التي يملكها آل تويني وكان مواظباً على الظهور على شاشات التلفزة اللبنانية كمحلل سياسي كلمته مسموعة. لقد رأيته عدة مرات فيما مضى قبل يوم العزاء، فوضوياً في لباسه، محدداً في كلامه، صوته أعلى من مضيفه، يحشد كل الدلائل لكي يوصل فكرته بحماس وعنفوان منقطع النظير. كثيراً ما كنت أردد أن هذا «الزلمة» يجب أن يكون زعيماً في بلده الذي يتجاوز فيه عدد الزعماء تعداد الشعب نفسه. كنت أراه من وراء الشاشة كأي رجل لا تربطني به صلة حقاً. فهذا الظهور «السياسي» لم يكن يسمح بالمطلق في تأمل لون عينيه أو رجولية قسماته أو أي شيء آخر بالمطلق. فما كان يهمني من كلامه أو كلام غيره هو كمية حبه لسوريا أو شتمه لها. غريب كيف جعلتنا المهاترات والحروب نفقد

موضوعيتنا مع مرور الوقت بينما لاحت هذه المشاعر الصغيرة وكأنها هي كل شيء.

لكني اليوم عندما أراه يدلي بحديثه الحماسي في استديوهات صممت بمكر لتستوعب ندين لدودين، فإني أفكر به كرجل قبلني ذات مرة وهو في ذروة حديثه الجدي وكأن لا علاقة له بما يقول وكأنه ليس هو حازم القديم الذي كنت أراه فيما مضى على الشاشة نفسها .. إحساس غريب وجميل في آن.

كان عالمي قبل حازم قد غدا مستقراً وأكثر رسوخاً. كنت قد أكملت الثانية والأربعين مكتفية بنفسي ومتصالحة معها، أهدأ وأكثر إصغاء وأقل رغبة في المماحكة والمجادلة وإثبات وجهة النظر مهما كلف الأمر؛ الصفات التي ميزت فترة العشرينات وجزءاً من الثلاثينات. كان في جعبتي أكثر من عشرين كتاباً مترجماً عن الانكليزية وستة مؤلفات وإحساس مكتمل باليقين تجاه شيء ما. كان الأدب يشبه المأوى الأخير في طريق بدأت أعرف كيف أتنبأ القادم فيه. مع ذلك، من يجرؤ على الادعاء بأنه نضج تماماً في هذه الحياة، فوراء هدوئي كنت أشعر في كل مرة أنني أنثى طير بعيون صقر وقلب مريم العذراء؛ لربما كان هذا وصفاً يناسب كل امرأة عربية لا تعرف كيف تنام في مكان كان مسكناً للصوص لفترة طويلة.

2

طلب مني حازم بعد يومين أن أرسل مقالاتي إلى الجريدة متى أشاء وأن أسهم في قسمها الأدبي. كان الإغراء كبيراً، فها هو الحب يأخذ شكله الأكثر تعبيراً ورسوخاً ويفتح أبواباً وفرصاً كبيرة للقائنا المستقبلي. لكنها جريدة (النهار) وليست أية جريدة أخرى. فالنهار ممنوعة من الدخول إلى سوريا بسبب موقفها المتحامل والمتطرف ومناوءتها للوجود السوري في لبنان، لكن صفحتها الثقافية كانت نخبوية بدرجة امتياز، فآل التويني جميعاً ممن حملوا الجريدة على اكتافهم ابتداءً بالجد وانتهاءً بالحفيدة كانوا يعلمون أن المدخل إلى السياسة هو الإعلام وليس العكس وأتقنوا ذلك جيداً عبر أكثر من نصف قرن. وكان هذا مدخل حازم أيضاً من دون أن يعلن عنه. لقد رأيت بريق عينيه يلمع كل غفلة وهو يشرح وجهة نظره بحماس على التلفزيون، هذا الحالم المؤمن، هذا المتقمص، هذا البطريرك الفرنسي القديم بثوب صحفي لبناني معاصر، هذا العاشق القدري لامرأة سورية بأمر من قديسة رآها في الحلم، وهذا الطفل المتمرد الحنون.

كان الطريق ما زال سالكاً بين لبنان وسوريا قبل شباط 2005، وكان جو الود الحذر المخنوق ما زال منتشراً في الهواء وراكنا

تحت الرماد. فليست الحروب هي فقط من باعد بين البلدين وإنما الاختلاف في أسلوب الحياة. فاللبناني، كما نراه نحن، أكثر لهواً منا وحباً للحياة، وأقل درامية. إنه بالنسبة لنا «قطاف ورد شمام هوا»، بل إننا نقول عنه إنه مستعد أن يصرف آخر قرش في جيبه على سهرة عشاء أو شراء قطعة ثياب جديدة. إنه فوق هذا وذاك يحبذ علناً الطريقة الأوروبية في الحياة فيسامح العلاقات الحرة بين أبنائه من الشباب والبنات، ويفاخر في تمليح كلامه بالفرنسية وبسمعته في فن الخدمات والإدارة والأزياء وتصفيف الشعر والميل للفن بكل أشكاله. اللبناني، كما نظنه، يختلف عن نسيج الشخصية العربية اختلافاً ظاهراً جلياً، بل إن بعض اللبنانيين يستعر من هذا النسيج ويعتقد أنه أعلى مرتبة وجدانية منه. فطبيعة البلاد الفرنكوفونية ومناهجها التعليمية الخاصة جعلت من هذه الشخصية ما هي عليه. اللبناني «عييش» كما نقول عنه بحسرة في سوريا، وهو أكثر قدرة على التعاطي مع الديمقراطية. فها هي النخبة السياسية في بلده تكرر ظهورها اليومي على شاشات التلفزة المتعددة لديهم والتي تمثل كل واحدة منها تياراً سياسياً أو حزباً أو طائفة، تتحدث على هواها وتقول آراءها وتستقبل من تشاء بينما لا يوجد نخبة سياسية لدينا يمكن لها أن تفعل الشيء ذاته، بل إنه لفترة طويلة لم يكن هناك إلا التلفزيون السوري المصدر الرسمي والوحيد للأخبار، وحين ظهرت القناة الثانية باللغة الانكليزية كان الامر يشبه قفزة وجدانية حقيقية في نفوس السوريين الذين رأوا أنه آن الأوان لكي نفتح نافذة صغيرة على العالم الذي كان لفترات طويلة يمر بالقرب منا غير عابئ. غريب كيف ربطنا شعبياً هذا التصور عن اللبناني بتوفر الحرية لديهم وخلوها من سوريا مستسلمين لكثير من الأفكار المشوشة عن

مصدر هذه الحرية فتارة نقول لأن بلدهم ذو طابع مسيحي ومرة أخرى نقول لأنهم تبنوا الأسلوب الغربي في الحياة. أما بعض المثقفين لدينا فيعتقدون أن الأمر أكثر عمقاً من هذا وأقوى تجذراً فلا الدين ولا الحياة الغربية ما ترك بصمة الحرية على اللبناني وإنما لكون دستور البلاد يميل إلى المدنية بطبيعته الأمر الذي رفضه آخرون ورأوا أن المشكلة هي تماماً غياب هذه الحرية كما يجب أن تكون بسبب التعصب المسيحي الأخرق.

أما أنا فكنت أحب لبنان من دون أن أفكر لماذا أحبه. لقد كان جزءاً من عائلتي يقيم فيه وهكذا فقد كان السفر إلى بيروت لملاقاتهم تشبه «الذهاب» إلى حي آخر. لقد اعتدت زيارته منذ أن كنت طفلة صغيرة وبشكل متكرر كل عام فرسخت رائحته في روحي وأبت الرحيل. لقد كان هذا الجزء الملون من الحياة مقابل حياتي في اللاذقية التي كانت تشبه الأفلام القديمة بالأسود والأبيض. أما اليوم فقد انعكست الصورة فلم أعد أتصور العيش ولا التمتع بالحياة خارج سوريا فما يتطلع إليه وجداني بدأت أعثر عليه اليوم فيها، هي الأرض المنتعشة بتؤدة وروية، تماماً كحازم الذي كان مكانه في وطنه يروق له لدرجة الهوس، بل إن كلمتي «لبنان ولبناني» لم تكن تخلياً من حديثه فكان بلده بالنسبة له نقطة الانطلاق والعودة ومصدر الحسرة ومكمن الأحلام كلها.

كان ما زال ينتظر رداً مني على قبول التكليف غير الرسمي بهذه «الوظيفة». قال لي في آخر حديث هاتفي بيننا:

- اقبلي.. لن يعتقلك أحد إن أرسلت مقالاً أدبياً أو نقدياً.. الكل يفعلون!

- ليس هذا ما أفكر به!

- إذاً!!!

ـ .. فقط الأمر غريب بالنسبة لي..!

ـ أخاف عليك من هذا الطابور الذي تسيرين فيه معصوبة العينين.. افتحي عينيك للدنيا.. إن الولاء للوطن أمر آخر تماماً!

ـ .. ماذا تقصد؟؟ رددت باستنكار.

ـ ... أقصد إن سوريا بلدك الجميل لن يضيره إن كتبت في جريدة...

ـ .. تشتمه؟

ـ ... لا طبعاً..! الولاء للوطن يكون في الحوار الصريح معه وليس بستر العيوب!

انتهى حديث التيه بيني وبين حازم تلك الليلة ولم ينته الحب. لكنه في نهاية الأسبوع اتصل بي بعد أن اجتاز الحدود بسيارته وقال إنه في طريقه إلي.

التقيت حازم في واحدة من مقاهي الرصيف الجميلة في اللاذقية. كان الزمن شتاء والأمطار الخفيفة تغزو كل قليل أفق المدينة الناعسة بينما كانت الأضواء تشع من كل جهة في الشارع الذي بدا وكأنه مستنسخ من أي شارع في مدينة أوروبية حديثة. أمسك يدي وأحكم نظارته في عيني بعد أن شرب كأس الماء دفعة واحدة:

ـ هناك حواجز كثيرة يجب تذليلها وأمور يجب التداول فيها ووجهات نظر يجب استبيانها.

ظننت أنه يدلي بحديث صحفي عندما تلفظ بهذه الكلمات. تطلعت إليه فرأيته جاداً فيما يقول لكني لم أستطع منع نفسي من الابتسام:

ـ الأمور أبسط مما تعتقد!

ـ لا، إنها ليست بهذه البساطة. دعينا ننسى أننا عشاق لوهلة. أنا أتحدث إليك الآن وجهاً لوجه كصحفي ومهتم بالشأن السياسي وأنت كأديبة لك وجهة نظر فيما يحدث.

ـ اسمعك!

مر ثعبان الوقت بطيئاً ملتوياً بينما كان حازم يقص علي حكايته مع بداية الحرب اللبنانية التي عايشها كلها.

«قبل عام من بدء الحرب كنت أحضر مسرحية «نزل السرور» لزياد الرحباني. كان شاباً في السابعة عشر من عمره وكنت أنا تقريباً من السن نفسه. لقد كانت المسرحية تتحدث عن مناخ الحرب القادمة والصراعات حيث بيروت غارقة في دماء أهلها. استمعت في هذه المسرحية إلى نشيد الثورة بينما كانت بيروت، سويسرا الشرق تتغنى بفرط حرياتها وجميلات شارع «الحمرا» وآخر صرعات الأزياء. كان أمراً غريباً أن تتآلف أذناي مع نشيد عسكري يحشد لحرب ما قادمة.. لم تكن حرباً ضد عدو غريب وإنما كانت حرباً من حروب الأهل الطويلة: حرب الأخوة وأبناء العم والجيران كلهم معاً. واليوم تأتي أنت يا حبيبتي لتقولي لي إن كل هذه التنبؤات التي تحققت يجب ألا تنتهي، فترفضين مجرد الكتابة في جريدة مثل النهار فقط لموقف ساذج منها؟ افتحي عينيك، تطلعي إلي.. لا نريد لا أنا ولا أنت أن نكون متواطئين على بلدينا.. لنكتب أينما كان ولكن لنكتب جيداً ولننقل الحقيقة ولو على قطع رقابنا. تطلعي إلي يا مريم.. أنا مازلت بطريركاً في بنطلون الجينز.. لا تبتسمي هكذا! مازلت أسمع نشيد الثورة في أذني.. حتى إني أشتم رائحة شيء قادم لا أعرف كنهه بعد..! تطلعي حولك.. ماذا تغير..! مدينتك جميلة، عصرية، مشعة.. لكنه الخوف نفسه!! هناك سوء فهم كبير يا حبيبتي بالنسبة لتعريف كلمة وطن وولاء.

الحب لا يكون بالتستر على العيوب وإنما بكشفها والشفاء منها مرة واحدة وإلى الأبد».

أمسك حازم يدي وشد عليها وقال بتركيز: لن يحدث شيء في أي من بلدينا من دون أن يصيب الآخر. هذا قضاء وقدر!

3

الطريق إلى بيروت يشبه الطريق إلى حتف معلوم. الترقب والانتظار الجميلان، الوعد بالحب والثياب الشديدة الأناقة التي سأرتديها هناك والكتاب الجديد التي سوف أهديه لأصدقائي الكثر فيها واللحظات الحميمة مع حازم، الرجل الكامل. بيروت هدية في علبة من القطيفة والساتان. بل إنها شجرة صنوبر كما هو معناها في اللغة الفينيقية، الشجرة الأزلية التي تزين علمها ذا اللونين الأبيض والأحمر. بناها سكان مدينة جبيل منذ أربعة آلاف عام لتتحول بسرعة إلى مملكة مستقلة يحميها رب خاص بها اسمه «بعل بيريت»، صوره كانت محفورة على نقودها المعدنية الرنانة.

ما زالت الصخور المرمية على جانب نهر الكلب تحكي قصص الشعوب التي قطنت فيها والجيوش التي جارت عليها بجحافلها ابتداءً من المصريين وحتى الحلفاء الأوروبيين الذين انتشلوها من بين الأيادي العثمانية، إلى الفرنسيين الذين تركوها حائرة وراءهم في منتصف القرن الماضي.

كانت بيروت تُعرف في زمن الرومان باسم «المستعمرة الممتازة» ليشجعوا الناس على الإقامة فيها، بل إن بناء مدرسة للحقوق في تلك الأيام الغابرة فيها جعلها تلقب بأم الشرائع ومرضعة العلوم، هذه الأم التي لم تعثر على أمها لاحقاً في أي من

مستعمريها اللاحقين وطالبين ودّها ومغتصبيها باسم الحب وقاطعي رأسها باسم الغيرة.

لقد هدتها الزلازل في الأحقاب التالية كما فعلت بكل الساحل الكنعاني الطويل وأرجعتها إلى قرية صغيرة لتعود مجدداً مدينة بمواصفات الألم والزحام إلى أن دخلها العرب الذين حطوا رحالهم فيها بعد طول انتظار.

يفهم العرب الحب بطريقة درامية تفجيرية لا مثيل لها. إنه الحب المترقب المشروط والمحبوس الأنفاس مثل حبي أنا وحازم؛ حب منكوب بالرومانسية العاقلة والمحسوبة. لقد أحب معاوية بن ابي سفيان بيروت فترك رجاله يحصنوها بالقلاع ويرممون جروحها خوفاً عليها من الرومان، بل إنه جعلها قاعدة عسكرية لحملاته وألحقها بدمشق وملأ الساحل السوري كله حتى بعلبك بالفرس.

أما عندما أغار الصليبيون عليها فقد- ازهقوا روحها من جديد فانهارت قلاعها وقتل أهلها وألحقوها بالقدس اللاتينية حينذاك. لكن صلاح الدين الأيوبي ما لبث أن استعادها وأعادها إلى دمشق من دون مشورة مثل قدر لا فكاك منه. وانتقلت بيروت من حضن صليبي إلى حضن مملوكي آخر حيث امتلأت بالمساجد والقيساريات وكذلك بالشعر والأدب إلى أن تلقفها الحضن العثماني عام 1516. لم تكن المدينة عاهرة لكنها كانت مغلوبة على أمرها بسبب من هشاشتها وجمالها كأنثى لا حول ولا قوة لها. إنها مغرية وتوحي بالفتنة القاتلة المذنبة.

غالبا ما كانت تختلط عليّ الأحداث التي وقعت على طول هذا الساحل، فقراءة التاريخ الشامي ليس أمراً بهذه السهولة، فحين كانت تقع الزلازل كانت تطيح به وبما عليه من عمران، وحين كانت تجتاحه الغزوات كانت تلحق مدنه الواحدة بالأخرى بخفة السيف،

أما الملوك والقادة العسكريون والأمراء الذين تناوبوا عليه فكان كل منهم يتمنى أن يحضن هذا الساحل ويبقيه لديه إلى الأبد. لقد تركني التاريخ أفهم أن بيروت عاشت قصص حب طويلة مع عشاق كثر شغفوا بها حتى الموت، موتها وموتهم معها.

حين استطاع فخر الدين المعني ان ينتشل بيروت وكسروان من حاكمها العثماني بدأ الفصل الحاسم من تاريخ مدينة حازم. لقد جمع كل أجزاء البلاد اللبنانية في أغلب بقاعها المعروفة اليوم كأمير حقيقي أول للبنان بدهاء منقطع النظير، معتمداً على المال والقوة والمصاهرة، منفتحاً على أوروبا ومستعيناً بكل خبراتها وبانياً هذه البقعة من العالم بشكل لفت أنظار العثمانيين الغافية التي تركته يصول ويجول فيها منفرداً. لقد ترك هذا الأمير المراكب التوسكانية تنزل حمولتها من البنادق والمتفجرات في مرافئ صور وصيدا المتواضعة وتقل بدلاً منها الصوف والحرير والصابون بعد أن وقع اتفاقية مع أميرها طلب فيها جواز سفر ومراكب شخصية لتقل أمواله إلى الخارج وأمر من البابا لكي يجمع تحت جناحيه كل موارنة البلاد. لكن نهاية المعنيين لم تأت على يد العثمانيين وإنما على يد أخوالهم آل شهاب الذين كانوا يستضيفون الأمير أحمد، آخر الأمراء المعنيين، فقتلوه بالسم لتلحق هذه الإمارة الجميلة بطرابلس الشام مرة أخرى.

جعلني حبي لحازم أقرأ التاريخ، ولقد فعلت هذا بكثير من الشغف غير المتوقع كأنني أريد أن أتعرف على هذه البقعة من العالم التي قال لي مرة إنني سأدفن فيها مشيراً بإصبعه إلى مكان في منطقة «غزير» الجبلية المطلة على البحر. «هنا سيكون قبرك». قبري! قلت له باستغراب. نعم، نحن الآن في منطقتي ومسقط رأسي والمكان الذي سأموت فيه وأدفن أنا وعائلتي...! تطلعت إليه لأرى بأي مزاج يتفوه بهذه الكلمات، فرأيته جاداً فصمت مبتسمة أفكر

في موتي القادم في هذه المقبرة الغارقة بين الشجر والمطلة من علٍ على البحر، بحري وبحر حازم، بحرنا المتوسط.

حين دخَل المصريون المدينة في النصف الأول من القرن الثامن عشر كانوا قد جمعوا تحت لوائهم البلاد السورية كلها من بابها لمحرابها. لقد هدوا السور المحيط بمدينة بيروت تاركين سكانها يبنون ويتمددون خارجه فتضاعفوا عدداً وتوسعت تجارتها. لكن المدافع الانكليزية ما لبثت أن أيقظت المدينة في أحد الصباحات لتلفها من جديد الغلالة العثمانية بكل ما فيها من طرابيش وشوارب مصبوغة ولهجة خاصة وكذلك عادت إلى مرافئها المراكب الأوروبية التي أخذت تكب بضائعها والأفكار.

قال لي خليل، السائق اللاذقاني الذي كان يقلني إلى بيروت بلكنته البطيئة الممطوطة، وهي لكنة تميز أغلب سكان مدينة اللاذقية، إنه يفضل أن تدهسه سيارة في طريق عودته وأن يموت متل الكلب على هذا الطريق الذي يعرفه كباطن كفه، على أن يعود إلى سوريا. لقد كان خليل سائقاً ثرثاراً نموذجياً، ما إن يصعد إلى السيارة ويذكر كلمة الله قبل الانطلاق حتى يبدأ بالنق والنقد والشتائم. لقد عمل خليل ثلاثين عاماً على طريق اللاذقية ـ بيروت عدا فترات قليلة متباعدة أثناء الحرب الأهلية في بيروت في أواخر السبعينات وبداية الثمانينات من القرن الماضي. كل يوم يستيقظ في الخامسة صباحاً ويدور على الركاب واحداً واحداً ليخرج من المدينة في السابعة أو أكثر بقليل. كان الركاب كلهم يعرفونه معرفة وثيقة ويخافون من لسانه فيلتزمون الصمت. وعلى الرغم من أن لباسه المهمل وفوضويته وصوته العالي الشتام توحي برجل شارع بسيط، إلا أن الركاب كانوا يلتزمون الصمت خوفاً من جرأته في النقد التي تطال حتى الذين لا تذكر أسماؤهم إلا بلغة التلميح والغمز. لقد كانوا يعتقدون بكل بساطة أنه مخبر يقول ما

يقوله لكي يصطاد ركابه مع أنه لم يحدث هذا مطلقاً خلال السنوات الطويلة التي قضاها في السفر والشتم وحمل الحقائب وشراء أغراض التواصي. لقد عاش خليل عمره عازباً يتحدث عن خطيبة وهمية لا ترضى به وتؤخر عن عمد موعد زواجهما على الرغم من جيوبه الممتلئة وملكيته لمنزل طويل عريض تلعب فيه الخيل كما يقول.

حين أنزل حقائبي أمام باب البيت في منطقة جونية، تطلع الي مبتسماً وقال بلهجته الممطوطة «خلي الأجرة علينا آنسة. أنت حملك قليل، والله لو شلتك على راسي ما قليل.. يعني ما متل غيرك.. بيروحوا فاضيين بيرجعوا محملين. الله يلعن هديك الساعة اللي صرت فيها «شوفير».. الله يسامحو أبوي ورتني هالمصلحة الزفت أنا وأخوتي..!» لم أعرف بماذا أرد.. هززت رأسي، شكرته ثم دفعت له وذهبت.

التقيتُ حازم يوم وصولي في المساء. حضنني.وقال «عندي لك مفاجأة.. لا تتطلعي إلي هكذا.. لن أقول لك! غداً تعرفين». كان الصليب الذهبي الصغير يتراءى ويختفي من بين فتحتي قبة قميصه بينما تفوح منه كل قليل رائحة مسك رجالي خفيف. لم أكن أحب لبس الصلبان والأيقونات أبداً ولا أحب التعطر لكني لم أقل هذا له. لقد كان حازم مارونياً مؤمنا تتدلى من مرآة سيارته صورة لمريم العذراء والقديس شربل وكذلك من قلادة مفتاح سيارته. أما غرفة مكتبه في الجريدة فكانت هي الأخرى تحتوي على رموز دينية كثيرة على حائط بالقرب من كومبيوتره وتحت زجاج مكتبه. لقد كان يبحث عن حلفاء طيفيين في هذه الصور والرموز بينما كنت قد انتصرت انتصاراً ساحقاً على فكرة الحليف ووصلت إلى نقطة لم أستطع معها لاحقاً حتى أن أفسر له كنه هذا الانتصار ومعناه. لم يكن حازم يقتنع بسهولة بما أقول. كان يعلق على حديثي

مبتسماً وهو يمسك بصليبه «حبيبتي.. لم يكن الإيمان يوماً سببا في مشكلة» فأرد عليه «لكن الدين نعم». باختصار لقد كنا نشبه أنا وهو «حصيرة القش» متجانسين متشابكين ومنفصلين في آن.

4

في عام 1860 اشتعل جبل لبنان بنار الفتنة بين الدروز والنصارى. في تلك السنوات كان الوضع المتوتر قد وصل لأوجه في لبنان. لقد أخذ البريطانيون جانب الدروز والعسافيين بينما وقف الفرنسيون إلى جانب النصارى والإكليروس الموراني والقائمقام بشير بن أحمد أبي اللمع. أما العثمانيون فكانوا يضرمون النار في هذه الفتنة فتارة يميلون مع هؤلاء ومرة أخرى مع أولئك إلى أن ضجت باريس ولندن بأخبار هذه الفتنة فازداد التدخل إلى درجة لم تكن مسبوقة.

لقد كان عليّ أن أعرف كيف بدا كل هذا خصوصاً أن جدي الأول قد هرب في تلك السنوات من هذه المجازر وأخذ عائلته من منطقة ضهور شوير واتجه إلى جبل العرب ثم إلى قرى جبال العلويين على الساحل السوري ليستقر ابناؤه في مدينة اللاذقية في مطلع القرن الماضي. كانت الدنيا في تلك الأيام «مفتوحة على بعضها» كما نقول والحدود الجغرافية شبه واهية، بينما كانت الحدود الدينية أكثر وضوحاً وتجذراً. اليوم حين أتطلع إلى ما كان أفهم كيف أن «قانون الطرف الثالث» الذي قرأت عنه في أحد كتب التحليل السياسي هو قانون صحيح. لقد كان هذا القانون

يفترض أن كل خلاف أو مشكلة بين فريقين، شريكين، دولتين، منظمتين،.. إنما يكون سببها طرف ثالث دائماً. لقد جعلت الفتن المفتعلة اللبنانيين يختبئون وراء رموزهم والأطياف الباقية ويفقدون الثقة ببعضهم البعض مثل حازم المعطر والذي ترن في عنقه قلادة دينية صغيرة. الحق، لم تتدخل الأم الحنون فرنسا لوقف هذه المجازر إلا بعد أن طلعت أرواح سبعمئة مسيحي موراني إلى ربها وليعود جبل لبنان سنجقاً عثمانياً مستقلاً.

كان منظر خليج جونية مبهراً من شرفة المنزل في شهر شباط من السنة. الشمس الرطبة كانت عاكسة على صفحة المياه الزرقاء الداكنة وعلى رؤوس الجبال القريبة جعلتني أشعر بأني مخطوفة بالألق والحلم. حتى أصوات المراكب المتزحلقة على الماء كانت تصلني من البعيد ناعمة ومنسجمة مع المشهد. أما في الشارع المقابل فكانت الفتيات يتنزهن بسراويلهن وتنانيرهن القصيرة وقد تركت شمس السنة الماضية سمرة باهتة جميلة على أجسامهن والوجوه وكأنهن خارجات للتو من لوحات «مها بيرقدار» العارية. وتطلعت إلى الأفق البعيد فرأيت تمثال سيدة حريصا مطلاً من عل على البحر. وفكرت في حازم ومفاجآته وشعرت أن الوقت يمر بطيئاً جداً وأني غير قادرة على الاسترخاء أكثر.

حضر حازم في الثانية بعد الظهر مسلحاً بابتسامته التي نمت عن أسنان بيضاء منتظمة وفوضوية في اللباس والأفكار والحركات. رأيته كتلة واحدة نابضة وأنا أفتح الباب له.

- تعالي فوراً.. لن أدخل.. المفاجأة بانتظارك.

- لم تقل لي إنك ستأتي في مثل هذه الساعة.

- لأن هذا جزء من المفاجأة...... يا حبيبتي.

وأخذت سيارة حازم تتسلق الجبال وهو يغني أغنية فرنسية قديمة للمطرب الفرنسي «جو داسان».

Que sera ma vie sans toi que sera ma vie si tu pars(*)

على حين كان يسرق نظرات خاطفة باتجاهي ليرى ردة فعلي وكأنه يعرف ما يقوم به بينما كنت أبتسم وأنا أهز رأسي مستغربة وراضية في آن.

توقفت السيارة في ساحة كنيسة سيدة «حريصا» التي كنت أتطلع إليها منذ أقل من ساعة من شرفة المنزل. «إنزلي» قالها بحماس. نزلت من السيارة وأنا مستغربة ولكنه سارع وخطف يدي ثم شدني إلى السور الحجري الأبيض المحيط بالمكان والمطل على البحر من ارتفاع شاهق. تطلع إلي وقال بسعادة ورجاء: «هل تقبلين بي زوجاً؟» ولم ينتظر حتى أرد وإنما أخرج من جيبه علبة فيها خاتمين رقيقين من الذهب الأبيض حفر عليهما تاريخ اليوم وإسمينا. ألبسني خاتماً وأنا صامته وممتنة ثم مد يده بالخاتم الثاني وقال: «إذا وضعت هذا الخاتم في يدي سأكون ملكك حرفياً وروحياً إلى أبد الآبدين. ليس الخاتم ما يربطني بك.. وإنما التاريخ والحب».

هل قال حازم التاريخ!!!

أُعطي جبل لبنان وضعاً ادارياً خاصاً بعد أن هدأت الفتنة بين الدروز والنصارى. لقد أُعلن متصرفية ممتازة يُدار محلياً من قِبل حاكم غير لبناني بينما «ألغت الدولة العثمانية جميع التقسيمات الإداريّة في البلاد السوريّة مع الإبقاء على الإمتيازات اللبنانيّة، وجعلت سوريا الطبيعيّة كلها ولاية واحدة مركزها مدينة دمشق». إذاً، عادت بيروت إلى حضن دمشق مرة أخرى وعاد أهلوها

(*) كيف ستكون حياتي من دونك، كيف ستكون حياتي لو رحلتي؟

يلتمسون من جديد الانفصال عنها من حضرة الباب العالي الذي استجاب لهذه الرغبة المتكررة القديمة فأعلن المدينة ولاية وألحق بها دفعة واحدة كلا من بيروت وعكا والبلقاء وطرابلس الشام واللاذقيّة. إنها لعبة تبادل الأحضان والكر والفر التي لا آخر لها. لعبة الحب الشغوف والنفور الشديد والنزوات الخائنة التي فلقت هذا العالم الصغير الخصب إلى نصفين بل أكثر.

هل أراد حازم الزواج مني ليدفنني في مدينته الجبلية ويرتاح إلى الأبد؟ سألته هذا السؤال بهدوء بينما نظراتي كانت مثبتة عليه ونحن نحتفل وحيدين بخطوبتنا في مطعم «الكاستيل» في منطقة الكسليك من بيروت الشرقية بحسب التقويم الحربي الأخير، هذا المطعم المحبب من قبل الصحفيين والكتاب والإعلامين وربما الجواسيس أيضاً.

- ارتاح منك! صعب. أنت قضاء وقدر.

- ربما!

- عندما تصبحين زوجتي لن أحتاج لإقناعك في الكتابة بأي جريدة تصدر هنا، وسيستعيد نصفك كيانه القديم وسيرتاح جدك الأول في قبره.

- ماذا تقول؟ المسافة بين بيروت واللاذقية لا تتجاوز المئتي وخمسين كيلو متراً! كيف تفكر هكذا!

- مريم... هذا التفكير السوري القومي لا أريد أن أسمعه بعد الآن!

- أنا أتحدث عن واقع الحال البسيط!

- واقع الحال هو أننا في هذه اللحظة بلدان كاملان .. ندان، تفصل بيننا حدود دوليه وتجمعنا اللغة! انسي كل المرحلة السابقة. لقد كانت جنونا فالتا من عقاله.. المجازر، الحروب، الاحتلالات، التدخلات.. كلها الآن أوهام.. تطلعي إلي الآن، انظري إلى يديك

الناعمتين أين تستقران! إنهما بين يدي. المشكلة يا حبيبتي أنني معتاد على الحرية وأنت لا، المشكلة أن بلدي ديمقراطي وأنت لا... الفرق بيننا ببساطة هو أنك خائفة وأنا لا. حسناً..... حضري مقالك غداً للجريدة وابعثيه لي «بالايميل».

في عام 1915 أخذت فرقة من الجيش العُثماني تقترب من جبل لبنان والانتشار في مواقعه الأكثر حساسية. وما إن وصلت إلى محلة الحازمية شرق بيروت حتى اعترضها العسكر اللبناني باعتبار المتصرفية مستقلة بإدارتها عن الدولة العثمانية. لكن الفرقة اكملت تقدمها غير مكترثة باتجاه المواقع التي حددت لها لتلقي رحالها في كل جزء من أجزاء لبنان. لقد ساعد ترحيب الأهالي اللبنانيين بها بالزغاريد والهتاف والزهور على إتمام مهمتها بكل هدوء ويسر!!

فكرت كثيراً بما يريد اللبناني وماذا يريد السوري فلم أصل إلى طرف لأي خيط. لقد اتعبتني قراءة التاريخ حقاً، فأكاليل الغار كانت توضع على رؤوس الحكام الأكثر قمعية من قبل الشعب ذاته. نحن نحب جلادينا، نعشقهم، نحلم بهم وننفذ طلباتهم بكل ممنونية ورضى وحين يرحلون نبول فوق قبورهم وننبش من خزائننا وقلوبنا الأسرار والغصات المخبأة الباقية. إننا صناع الخرافة بدرجة امتياز وأول قتلتها؛ خرافة ميزاتهم المهولة ونظرهم الثاقب الأخرق. لما علينا أن نسمعهم كل صباح مع النشيد الوطني، إننا نفديهم بدمنا وروحنا، وحين تنهار تماثيلهم ننهار عليها بصرامينا ضرباً وبصاقاً. إنني مبتلية بتاريخي العريق، بهذا الوله تجاه أرضي والذي ينخر صدري ليل نهار كسوسة لا تأبى الرحيل. إن أرضي صليبي، وتاريخي وشم الصلاة على جبيني وحازم قضاني وقدري.

5

فتحت عيني صباح اليوم التالي وأخذت أتأمل خاتم حازم في أصبعي. أصبحت «مرتبطة»، هذا ما نما لعقلي في الحال. لقد عشت حياتي وأصابعي وعنقي حرين في بلد يقول عنه حازم إنه ليس حراً ولا ديمقراطياً؛ الكلمتين الأكثر سوءاً للفهم والأكثر توقاً إليهما في وطننا العربي الحزين. لكن لما خاتم رقيق يزن بضعة غرامات يثقل عليّ وكأنه حجر من أحجار الأهرامات؟

لست جديدة على الحب فلقد عرفته من قبل مرة أو مرتين. كانت الأمور تحدث من دون مقدمات وبلا وعي، حتى أنني لم أكن أفكر في مرحلتي العمرية الصغيرة تلك ما هو انتماؤه السياسي أو عقيدته أو موقفه من قضايا كثيرة لأنه لم يكن لدي أنا شخصياً حينذاك انتماء واضح أو موقف تجاه شيء. لقد كنت ملتهية بأهدافي الصغيرة اليومية وتفاصيل استغرب اليوم كيف كانت تشكل لدي هما ما ولو لثوان. كل ما كنت أبحث عنه هو مستواه الثقافي وشيء من الحياء مثلي وقصة شعر عسكرية لا توحي باللهو. كنت آخذ الأمور مأخذاً استسلامياً بعض الشيء، النضال والمعارضة والتحليق خارج السرب كانت أشياء غير واردة في قاموسي أو في قاموس أي أحد وكانت الحياة تشبه القضاء والقدر؛ تحدث كل يوم لأنها يجب أن تحدث. لقد كنت غائبة عن

الوعي، شديدة الحساسية من دون داع وربما انكفائية بعض الشيء.

لكن الأمور تغيرت لاحقاً، إذ مع كل حرف كنت أقرؤه كانت تتسع حدقتاي ويستطيل عقلي وأفيق من غيبوبتي الطويلة إلى أن قررت أن الحب بطبيعته لربما وجد من أجل مراحل عمرية أكبر مما نعتقد. إنه ليس معطى للشباب بحلته العشقية الانجذابية وإنما ربما هو في حاجة لسنوات من النضج قادرة على استيعابه والتعاطي معه بعمق وجمال أكبر. وكما في الحب كذلك في الدين والسياسة وكينونتي كأنثى.

حين رأيت حازم أول مرة فكرت إن كان هذا هو حب سنوات الحكمة والنضج الذي انتظره! لربما قد أزف الوقت وأصبح ملائماً لشق غلالة الاعتبارات الحزينة التي لم ينفع معها الصمت أو الاستكانة.

لكني مرة أخرى، لم أسأل عن انتماء حازم وإنما بدأ الحب من دون مقدمات حثيثاً ومليئاً بالشكوك الصغيرة وكأنني مازلت في سنوات المراهقة الأولى. لقد رأيت الصليب على صدره واكتفيت بذلك أنا التي عرفت كيف أبعد حياتي بقوة عن الرموز الدينية والحلفاء الطيفيين. لم أتغير في الحب. هذا ما اكتشفته لاحقاً وكان علي أن أقبل تبعات هذا اللاتغيّر بشيء من التسليم.

أرسلت مقالتي إلى حازم بعد ساعتين من استيقاظي. لقد أمضيت الليل أحاول أن أكتب في أمور أكثر أدبية وفنية وأن أبعد عقلي عن شبكة السياسة التي تنضح ألماً وكذباً لكني لم أفلح حقاً. لقد وصل المقال إليه معنوناً بـ «العمال السوريون في لبنان» وانفجر أمام عينيه مثل قنبلة عنقودية. اتصل وقال بلهجة مازحة:

ـ أيتها الحبيبة الصدامية!!! في أي باب تريدين أن أنشرها!

ـ ولا في أي باب! افتح باباً جديداً لها.

قال بتحد هادئ وبصوت واثق خفيض:

ـ هل أنت مستعدة للظهور أمام الإعلام والتحدث عن هذا الموضوع؟

ـ ....!

ـ إذاً لن أنشرها!

علمني هذا البطريرك الحديث كيف أنسجم مع نفسي. لربما لا يكفي أن ندبج الكتب والمقالات وجعل صورنا تحتل مكانها في أعمدة الصحف. إن حازم يحارب علناً وجهاراً من أجل هدف لطالما اعتقدت أنه مضلل وغيبي مع أنه مؤمن به ويعلن ذلك على الملأ.

ـ تعال فقط. من أين «طلعت لي» في آخر هذا العمر يا حازم!!

سمعت ضحكته الصاخبة ثم أغلق الهاتف لأغرق أنا مرة ثانية في فوضى السرير وأبقى هكذا لوقت طويل أفكر.

6

في تشرين الثاني عام 1918 عرفت الحرب العالمية الأولى خاتمتها. كانت الدولة العثمانية قد خسرت الحرب بعد أربع سنوات من الصراع المرير رأى العالم فيها أهوالاً تقشعر لها الأبدان. لقد غادرت قطعان الأتراك دمشق وحل محلها حكومة عربية باسم الشريف حسين بن علي أمير مكة المكرمة الذي قيل إنه تم «تركيب أجزائه» في بريطانيا العظمى لكي ينهي حكم العثمانيين في عربستان أو دار العرب.

في هدأة منتصف الليل أيقظ أحدهم عمر بك الداعوق رئيس بلدية بيروت آنذاك لكي يسلمه برقية مستعجلة كان الأمير محمد سعيد الجزائري قد أرسلها إلى كل رؤساء البلديات على الساحل السوري. قرأها وبقايا النوم ما زالت في عينيه ثم ما لبث أن أبرق إلى والي بيروت اسماعيل حقي لكي يعلمه بها. لقد كان نص البرقية واضحاً لا لبس فيه: «بناء على إنسحاب الحكومة التركيّة فقد تأسست الحكومة العربيّة الهاشميّة على دعائم الشرف. طمنوا العموم وأعلنوا الحكومة باسم الحكومة العربيّة. أسفكوا الدم ولكن بعدل».

الله وحده يعرف ماذا كانت تعني العبارة الأخيرة! سفك الدماء بعدل!!!

لقد ترك والي بيروت ومعاونوه الاتراك المدينة بعد أن أذاع بياناً أعلن فيه انتهاء الحكم العثماني معفياً كل الموظفين من التزاماتهم تجاه هذا الحكم الذي دام أربعمئة عام. استقل اسماعيل حقي عربته مغادراً المدينة بعد أن ترك سيفه فيها. لقد عاش والياً يحكم في أجمل مدينة في الشرق ومات في مشفى مجاني للفقراء في مدينته استنبول. لقد انتهى الاتراك ها هنا. رحلوا كما سيرحل كل من ستطأ قدماه بيروت تاركاً أسلحته وراءه والأحلام. لقد جعلت الاغتصابات المتتالية لهذه المدينة موهبة في سفك الدماء بعدل إلى أن أتى اليوم الذي أطاحت فيه حروب الأهل والجيران بهذه الموهبة فأغرقت الدماء الجميع.

لقد أمكن للبناني أن يفسر زوال هذه الدولة بمنطق ديني خاص. فبعد الرحيل الهادىء لقطعان الأتراك ضربت المدينة هزة أرضية نشرت الرعب والهلع بين سكانها فاعتقدوا إنما هي العناية الإلهية حزينة على نهاية دولة الخلافة الإسلامية أمام النصارى. ومازاد الطين بلة هو تحليق طائرتين انكليزيتين في سماء المدينة ضربتا المرفأ ونشرتا الذعر بين الناس وهكذا بدأت رحلة هروبهم إلى الخارج.

تُرى كيف يكون سفك الدماء بعدل!!! هكذا كنت أفكر وأنا أستقل سيارة أجرة بألفي ليرة لبنانية للراكب إلى شارع «الحمرا» في بيروت لالتقي بناشر كتابي وصديقي في آن عبد السلام الحموي. لقد ترك عبد السلام قريته في إحدى الجبال الساحلية السورية منذ أن كان في الثامنة عشر من عمره وتوجه للدراسة في بيروت وبقي فيها إلى هذه اللحظة. إنه اليوم في الثامنة والستين من عمره، لبناني الجنسية وصاحب أهم دار نشر عربية في كل لبنان، وفوق هذا وذاك، كلمته مؤثرة في الشارع ولها ثقلها بين مراجعي سياسة المنطقة والمحللين. إن لكنة قريته السورية القريبة

من اللكنة اللبنانية سهّلت اندماجه في مجتمع المدينة لدرجة لم يحاول أحد أن يتساءل فيما بعد عن صاحبها أو عن موطنه الأصلي.

ما يربطني بعبد السلام ليست جذوره السورية أنا لبنانية الجذور وإنما طريقة تحليله للأمور وفهمه لتاريخ الله وحده يعرف كيف يفصل أحداثه أو يغربلها أو يعطي ما لقيصر فيه لقيصر وما لله لله. إنه يحمل تاريخ لبنان الثقافي والسياسي للخمسسن سنة الأخيرة في روحه حقاً. لقد اجتمع في مجالس سعيد فريحة الليلية مع أرباب الفن مثل الأخوين رحباني وعبد الوهاب وفريد الأطرش وخليل حاوي وآخرين، وكان مؤسساً للكثير من المجلات الشعرية والأدبية لينتهي محلل سياسي مرموق وصاحب أهم دار نشر عربية.

ليس لعبد السلام رموز دينية ليحتفظ بها. ولم أعثر على قلادات لحلفاء طيفيين في سيارته أو مكتبه ولم يكن يذكر اسم الله إلا في مناسبات التأفف والشتيمة التي كان بارعاً في تركيب ألفاظها بمهارة لا توصف وهو غارق في ضحكات متلاحقة تشبه صفير قطار، فتختفي عيناه ويرتجف السيجار الثخين بين إصبعيه الغليظين.

استقبلني عبد السلام فاتح الذراعين. أشعر أنني ابنته من كثرة ما يغدق علي من عاطفة واهتمام. أقول له إنه يدللني من دون أن يعرف عواقب هذا فيرد بحسم ومزاج عال أنه لو رآني أغلط فسيقطع رقبتي من دون تردد. أضحك لأني أعرف مسطرته ومكياله جيداً.

- تفضلي يا ستي هذا كتابك الجديد.. مبروك.

تطلعت إلى الغلاف فرأيت صورة جعلتني أجفل. إنها لوحة

«الشغيلة» لفنان عرف بميوله الاشتراكية اسمه مورللي. لوحة رسمت بالحبر الأسود لعمال مناجم متراصين في مغارة ضيقة تحت الأرض.

- لما هذه اللوحة!

- لا أعرف... هي من جهة تناسب موضوع الكتاب ومن جهة أخرى تناسبك أنت. ألم تقولي اترك أمر صورة الغلاف عليك؟

أطرقت لحظة وقلت:

- صحيح. على فكرة عليك أن تبارك لي أيضاً على أمر آخر.

- ما هو؟

- خطبتي من حازم عبد الملك!

ينهض عبد السلام مصعوقاً:

- حازم ما غيره، حازم عبد الملك ما غيره الصحفي في (النهار)!!!

- نعم؟ وهو يريدني أن أنشر مقالاتي في جريدته وأن....!

- هل تحبينه!!!

- كثيراً!

أسقط من يد عبد السلام. جلس على كرسيه الوثير وهو يتطلع بي شبه مبتسم وكأنه غير مصدق ما يسمع.

- أحبه كثيراً.. أقول لك.

عض عبد السلام على سيجاره وقال مبروك.

التقى حازم وعبد السلام كثيراً فيما مضى في مناظرات سياسية على الهواء وصلت حدتها إلى حد الشتم والإهانة. كان مضيفهم يعرف كيف يلعب لعبته جيداً فقام بكل ما عليه لكي يستفز

كل منهما الآخر فيتعاركا ويحصل هو على راتبه الشهري مع ابتسامة تشجيع من رئيسه. لقد كان حازم وعبد السلام صورة عن هذا البلد الذي يستعد لكي ينقسم بشكل لم يعرفه تاريخ هذه المنطقة الحافل. لقد كانا زوبعتين متناقضتين وعاشقتين للبنان.

7

اعتبرت الحكومة العربيّة الجديدة البلاد السوريّة كلها وحدة سياسيّة كاملة ولبنان جزءً منها بلا استثناء. كان هذا خطأً دمشقياً فطرياً آخر بالنسبة للحلفاء كلف بيروت الكثير. لقد رابطت أربع بوارج فرنسية وانكليزية في مرفأ بيروت بكل هدوء وتسلل جنودها إلى كل المدينة وعلى رأسهم الكولونيل «دي بيابات» التي أرسلته الأم الحنون لكي يدير شؤون هذه المنطقة بعدما اقتسموا سوريا كلها مع الانكليزي من دون علم الحكومة العربية الجديدة.

لقد كان اقتسام سوريا عملاً جراحياً مؤلماً لم تنشف جروحه إلى الآن ولم يكتمل مخاض ولادته. لم تكن الوحدة الوجدانية لشرق المتوسط وهماً أو دجلاً وإنما حقيقة بصم عليها التاريخ بأصابعه العشرة. وإذا ما كان هناك شيء من النزف من جرح ما هنا أو جرح هناك فلأن ما كان يربط سوريا والأردن ولبنان وفلسطين والعراق والكويت وقبرص ولواء اسكندرونة وأجزاء أخرى من تركيا وأجزاء من الأحواز في إيران وشبه جزيرة سيناء في مصر وجزء من صحراء النفوذ في السعودية إنما لم يكن البته أضغاث أحلام. فلقد عرف هذا الشرق قديماً ثقافات كثيرة مثل السومرية والأكادية والكنعانية والفينيقية والعمورية والآرامية والآدومية والفلسطينية واليهودية والمسيحية والإسلام، كما مرت عليه أقدام جحافل الإمبراطوريات المدججة بالأحلام والخوف مثل الآشورية

والبابلية والأخميدية والسلوقية والحسمونية والرومانية والبيزانطية قديماً، ثم في العصور الوسطى تبدلت نكهة الأحلام فأصبحت دينية مطرزة بالكتب المنزلة والرايات والفتح فدخلها الراشدون والأمويين والعباسيون والفاطميون والصليبيون والأيوبيون والمماليك، لتنتهي حديثا في الأحضان العثمانية والشوارب المصبوغة والروح المخنثة التي ولعت بالنساء والأثواب المقصبة والعمائم الاحتفالية والنصول التي تركن فوق دكة الخصور الذكورية المنتفخة التقية.

وحين وصل شرق المتوسط إلى أيدي الأوروبيين عرفوا كيف يتعاملون معه تماماً. لقد نسوا في صالوناتهم الأنيقة الكلمات المنمقة وتقبيل أيادي السيدات والأنحناء المتكلف وشرب الكونياك المعتق وتركوا لخيالهم العنان في انتقاء مناطق النفوذ؛ فقسموه إلى قطع صغيرة في كل منها نتف من روحه بقيت حيه واستمتعوا تحت شمسه الدافئة بتخيل نسائه اللواتي لم يروهن مرة واحدة، في وضعيات جنسية كسولة الله وحده يعرف متى يمكن أن نخلص أوروبا منها.

عندما وطئت قدمي الكولونيل (دي بياباب) بيروت أرسل ضابطين من قبله لكي يقابلا شكري باشا حاكم بيروت ويأمرانه بإنزال العلم العربي من فوق سطح سرايا «بعبدا» ففرنسا الحرة لا تأبى البقاء تحت علم مارق من الآن فصاعدا. نهض شكري باشا من على كرسيه أمام الضابطين وقد امتلأ بالغضب والكياسة المصطنعة واستل مسدسه ووضعه أمامهما على مكتبه قائلا: «مسدسي أمامكما ويمكن لأي منكما أن ينهي حياتي بطلقة واحدة صغيرة إن شاء ولكني لن أنزل العلم».

نزلت من مبنى «عرنوق» في شارع الحمرا ومعي كتابي الجديد. فكرت أن اتوجه إلى مكتب حازم في دار النهار وأفاجئه.

تطلعت حولي وأنا ما زلت واقفة على الرصيف أمام مدخل المبنى وفي الحال ازدهرت ذاكرتي حين كنت في الرابعة عشرة ألحق بوالدتي في بداية السبعينات بتنورتها القصيرة المشجرة وقميصها الضيق ونظارتها العريضة التي كانت تغطي أغلب وجهها وشعرها الأشقر الجعدي، وهي تدخل وتخرج من المحلات المنتشرة فيه هنا وهناك تحمل الأكياس الممتلئة بالأحذية والثياب التي كانت تعتبر آخر صرعة في وقتها. لربما لم أعرف شارعاً في أي مدينة عربية لاحقاً عرف مثل شهرة هذا الشارع الذي كان في يوم من الأيام «ممشى لجميلات هذا الشرق الحرات». لم يكن للاذقية المتواضعة آنذاك هذا الألق الذي عرفه هذا الشارع أو عرفته هي لاحقاً. وحين أتذكر مدينتي في تلك الفترة لا يستدعي هذا إلى ذهني أي شارع اللهم «الحارة» التي يقطن فيها بيت جدي لأمي وأبي والذي قضيت أغلب سني طفولتي فيها ألعب مع بقية الأولاد. إن هذه الحارة المتواضعة الجميلة التي عطرها الأجداد والأقارب والجيران بأصواتهم لا تمت بصلة لسوق الحميدية عندما نقول دمشق، ولا للموسكي عندما نقول القاهرة، ولا طبعاً للحمرا عندما نقول بيروت ولا حتى لشارع الآلام (فيا دولوروسا) عندما نقول القدس، لكنها كانت كل المدينة بالنسبة لي.

استقللت سيارة أجرة باتجاه دار النهار. كنت ألمح من نافذة التكسي البطيئة بسبب الزحام أفواج المصلين في وضعية السجود يفترشون أرصفة هذا الشارع بالقرب من الجامع المكتظ بهم بينما المكبرات تصدح عاليا بالصلاة. تطلعت إلى الكتاب بين يدي وبدأت أتحسس الغلاف وأقلب فيه كيفما اتفق بينما هدني فكر حزين لم أعرف مصدره. رأيت القرآن الكريم يتدلى من مرآة السيارة وما هي إلا لحظات حتى ماعت الدنيا أمام ناظري وبدأت دموع ساخنة

تتدفق من عيني على مهل. لقد انكسر شيء في داخلي مثل آنية كريستال ولاح قلبي على وشك التوقف.

8

ظهر مبنى (دار النهار) أمامي في ساحة الشهداء الواقعة في قلب الوسط التجاري لبيروت «كحرف لا يُقرأ». كنت خائفة وكأنني امرأة تخون زوجها للمرة الأولى لدرجة شعرت بالعرق يسيل من باطن كفي المثلجة التي أمسك بها الكتاب. اتصلت بحازم على هاتفه الخلوي لكي يلقاني أمام المدخل ويرافقني إلى مكتبه لكنه لم يرد. نزلت من سيارة التاكسي وبدأت أكرر الاتصال به من أمام المبنى بعصبية بدأت تتنامى إلى أن رد أخيراً:

ـ حازم أنا تحت.. لا أعرف كيف أصعد إليك!

ـ سأكون عندك في الحال!

لقد أعدم جمال باشا السفاح في هذا المكان أهم مناضلي ومفكري لبنان إثر هزيمة الدولة التركية كما أعدم مثلهم في الوقت نفسه في ساحة المرجة في دمشق. ماذا إذاً كانوا سيطلقون على هذه الساحة إلا ساحة الشهداء؟ وماذا كانوا سيملؤونها إلا بالتماثيل التي تحفظ هذه الذكرى والتي ستشهد على دمار كثير آت؟

احتضنني حازم بقوة وفرح وقبلني قبل أن نأخذ المصعد. كان يجب أن أخجل أو أتمنع لو لم أكن في بيروت. إنها المدينة الخارجة عن سرب كل المدن العربية الأخرى والتي كانوا يجدون

تبريراً لميوعتها لكونها عاصمة لدولة عربية يحكمها رئيس مسيحي، على خلاف العواصم العربية الأخرى التي كانت مسلمة خفية وعلنا وتتمتع بقوانين عيبها الخاصة. ألهذا كانوا يأتون إليها من كل الجهات ويستلقون بحرية تحت شمسها الدافئة وعندما يخرجون منها يمزقون صورهم مع الحبيبات العابرات وينفضون غبارها عن نعالهم؟ بأية طريقة تُرى كانوا يحبون بيروت؟ هذا الحب الوله الذي طاف بالغيرة والحسد وبالتوق لطعنها من الخلف بينما ثيابها معلقة في خزائنهم. «إحدى أهم ميزات بيروت هي أنه لا يمكن أن تُجر امرأة أو رجل عربيان إلى السجن إذا ما تبادلا قبلة سريعة خاطفة أمام مصعد.» هكذا مازحني حازم ضاحكاً ونحن نصعد إلى مكتبه في الدور الثالث.

كان الجنرال اللنبي الملقب بـ «الثور الدموي» كومنداناً انكليزيا ذا نظرة حالمة زجاجية تتطلع إلى اللاماكن وشفاه رقيقة يعلوها شارب قصير كث. لقد شُبه بالكرباج من كثرة قسوته في معاملة الجنود والضباط الذين كانوا تحت إمرته. كان الرجل مترئساً لقسم الفرسان في الحملة التي قادتها انكلترا ضد فرنسا لكنه ما لبث أن انتقل إلى جبهة فلسطين حيث كان الضجر هو عدوه الأخطر كما قال «تي اتش لورنس» في مذاكراته عنه. وحين وطئت قدماه القدس في كانون الأول عام 1917 كان الغازي المسيحي الثاني الذي يدخلها بعد الصليبيين. في السنة التالية كان قد طرد آخر جندي عثملي من البلد ليترك له الطريق مفتوحاً إلى دمشق.

حين كلف اللنبي ضابطاً انكليزياً بإنزال العلم العربي من فوق سرايا «بعبدا» والناس نيام كان حلم الاستقلال قد دفن في مهده لتدخل بيروت وجبل لبنان وكل المدن السوريّة تحت الانتداب الفرنسي المباشر بحجة أن هذه الدول ما هي إلا تركة عاجزة من تركات العثمانيين وهي ليست قادرة على الوقوف أمام الحياة

الجديدة وحدها. وهكذا خفق العلم الفرنسي لوحده في سماء المناطق التي سميت فيما بعد بـ «الكيان اللبناني ذي الطابع الخاص». لقد تفتتت سوريا الطبيعية إلى غير رجعة، أما تعدد طوائفها فقد سهل إنجاز مهمة الانقسام بخفة يد فنان: مناطق حمراء تحت الانتداب الانكليزي، وأخرى زرقاء للفرنسي، وفلسطين هدية من القطيفة والساتان لليهود.

تطلع حازم إلى غلاف الكتاب وهو يبتسم غامزاً من قناة عبد السلام «يبدو أن ناشرك يقرؤك جيداً. ألا تتمنين لو كان أصغر سناً مثلاً». لو كان حازم سوريا لتركته للتو من أجل هذه الملاحظة الفجة. لكنه من «ثقافة أخرى» لا تلقى بالاً لمثل هذا المزاح في العلاقات. لقد كان علي أن أراعي الفروق الثقافية في الحب أيضاً وأن أتقبل الكثير من الكلمات التي كانت تصل إلى أذني برنة عالية؛ النكات الجنسية اللماحة، الضحك العالي فجأة، الشتائم التي تمر عابرة مع الكلمات، الإعلان الصريح عن العلاقة العاطفية وأشياء كثيرة أخرى.

أجبت حازم بالمرح المبطن نفسه وبدلال لئيم: ياليته كان!

بلع حازم ملاحظتي كأنه يبلع سكيناً وصمت ثم عاد إلى موضوع الكتاب بتعابير وجه مختلفة مستفسراً عن مضمونه ومحاولاً بعثرة الملامح التي تركها ردي على وجهه. قال بشيء من العصبية:

ـ لا أعرف يا حبيبتي لماذا تثيرين قضايا ليست بحاجة للمزيد! الأمور عال! كل شيء عال.. لا أفهم أن تكتبي رواية كاملة عن العمال السوريين!!

ـ حازم.. أنت الصحفي ولست أنا. إنهم مئات الآلاف في بلدك الذي لا يتجاوز عدد سكانه الخمسة ملايين.. إنهم طبقة الآن،

شريحة كاملة مندسة بوجع بينكم. عماذا أكتب إذاً، عن فراشات ليل بيروت؟

وقع صمت متوتر للحظات بيننا. لسنا، أنا وحازم مجرد امرأة ورجل عاديين، إننا أكثر من تلك. إننا أكثر من ذلك. لم يجمعنا الحب فقط وإنما كان هذا الحب نتيجة لمواصفات خاصة في كل منا. لقد أحب الواحد منا مواصفات الآخر وهكذا ولد الحب. إنني على يقين أننا أنضج من أن يكون رباطنا بسبب توقد شبق مر للحظات في عقلينا. لهذا إذا ما تغيرت عقائدنا، أفكارنا ووجهات نظرنا، فإن الحب يهتز من رأسه حتى أخمص قدميه. لكن الذاكرة المادية تبقى حية لفترة طويلة؛ الاعتراف بالحب والهمس خلال القبل، اللمس المكتشف وحرارة الإقتراب ما تزال هناك ماثلة في أرواحنا وجاهزة لكي تبدد أول اختلاف يطفو على السطح. مسك حازم يدي مبتسماً على مضض وقال هيا نخرج من هنا.

9

في 21 تشرين الأول عام 1919 وصل إلى بيروت الجنرال «غورو» حاكماً على لبنان وسوريا تحت اسم المفوض السامي لحكومة الجمهورية الفرنسية في الشرق. كان غورو فاقداً لأحد ذراعية في إحدى المعارك التي حاول فيها الحلفاء اختراق الدردنيل من أجل احتلال استنبول. لقد أتى لكي يعزز التقسيم الفرنسي لبلاد الشام بذراع واحدة ونفس متشفية. كان عارفاً بما يجري في صمت هذه البلاد التي تغلي كمرجل، فالجواسيس كانت تنخر جسد البذرة الوطنية الفتية، والدعاء للشريف حسين بن علي في جوامع الوطن السوري وكنائسه جعلت الرجل يرتجف من الغضب فنفا من نفى وقتل من قتل، وألغى مجلس الإدارة في جبل لبنان، والتفت إلى سوريا الداخلية منذراً الملك فيصل بالتنحي وقبول الانتداب وإلغاء الجيش العربي فيها. لكن حين رفض هذا الأخير، كان العسكر الفرنسي يزحف إلى دمشق يريد أن يحتلها بالقوة. دخل غورو بيده الوحيدة إلى قلب دمشق وبمساعدة حامياته المنحدرة من سلالات الثورة الفرنسية، وهناك توجه إلى قبر صلاح الدين الأيوبي بالقرب من مسجد بني أمية محاطاً برجاله وعلامات النصر على وجهه الأبكم. لقد كان الرجل يقف على ذروة انتصاره وهو يحمل عصاه التي قرع بها الضريح قائلاً بلكنة لم تلوثها المستعمرات الكثيرة ولا غزوات الجمهورية العاقلة:

"Les croisades sont maintenant terminé. Réveille-toi Saladin, nous sommes de retour. Ma présence ici consacre la victoire de la Croix sur le croissant."(*)

بعد عام كان غورو يقف مخاطباً أعيان البلاد في قصر الصنوبر في بيروت بينما كان المطران الياس الحويك رئيس الأساقفة الماروني والشيخ مصطفى نجا مفتي بيروت يستمعان إلى خطبة الرجل المعطوب في هيئته الاحتفالية التي زادها تيهاً مدفعان نصبا على مدخل القصر كانا قد سُرقا من الجيش السوري خلال معركة ميسلون: «باسم حكومة الجمهوريّة الفرنسيّة أعلن (لبنان الكبير) في قوته وعظمته من النهر الكبير إلى أبواب فلسطين وقمم لبنان الشرقي... بالأمس، منذ خمسة أسابيع، كان جنود فرنسا الفتيان، أولئك الذين أدهشتكم أفعالهم لمدة أربع سنوات، يعززون أمانيكم، وبمعركة واحدة، قضوا على تلك القوة المشؤومة (الجيش العربي السوري) التي كانت تطمع باستعبادكم. إن جنود فرنسا هم كفلاء استقلالكم، فلا تنسوا أن دم فرنسا الكريم قد سال لأجل هذا الاستقلال، كما سال لأجل استقلال شعوب كثيرة... ليحيا لبنان الكبير، لتحيا فرنسا!».

في اليوم التالي، تركوا هذا الجنرال البراغماتي جالساً في كرسي مذهب في كنيسة مارجرجس في بيروت يحضر قداساً أقيم على شرفه. لقد وصل غروره الأوروبي إلى مداه وهو يستمع إلى وعظة مؤثرة للمطران اغناطيوس مبارك بدأت بعبارة شهيرة من الإنجيل («هذا هو اليوم الذي صنعه الرب فلنفرح ونتهلل به»... بعد استيلائك على الشام، يا مولاي. جلوْت عن الشعب غيوم الأوهام فأصبح في حالة من الفرح والشكر والحماس لا توصف، لأن هذا الانتصار أنقذه من كابوس التشوش والقلق الذي كان يضغط ويثقل

(*) لقد انتهت الحملات الصليبية. استيقظ يا صلاح الدين، ها نحن قد عدنا. إن حضوري ها هنا يكرس انتصار الصليب على الهلال.

عليه، فأصبح الآن يشتغل ويعمل في راحة وهناء... فاسمح لي يا حضرة القائد أن أشكرك باسم الشعب الساذج الذي أنقذته من أغلال الجور والإستبداد وأشكرك أيضاً لاستيلائك على الشام التي كانت حكومتها السابقة منشأ تلك الإضطرابات، أشكرك على (لبنان الكبير) الذي فتح لك السبيل فصرت سيداً على سوريا كلها).

لقد زُفت بيروت إلى جبل لبنان في ذلك اليوم وسط فرحة الانفصاليين فيه شعراً وإعلاماً، زفافاً دينياً مسيحياً لا رجعة منه وانتهت وعود الحلفاء للعرب، لكن المرجل بقي يغلي فيها وفي طرابلس وصور وصيدا. لم يكن الانتداب مقبولاً لدى الكثيرين ولا تجزئة البلاد السورية بحسب الطائفة. كانت هذه العملية الجراحية أدهى وأكبر ألماً من أن تتحملها كل أجزاء الجسم. كان الإصرار على الوحدة السورية قد بدأ يأخذ شكلاً معارضاً لكن حسابات الدب لم تنطبق على حسابات الكرم. لقد كانت باريس طرشاء وهي تكلف لجنة من وزارة خارجيتها بوضع دستور للبنان. وهكذا ضمت الجمهورية الجديدة كلاً من بيروت (صيدا، صور ومرجعيون) وطرابلس (قضاء عكار) وجبل لبنان والبقاع وبعلبك وحاصبيا وراشيا. لقد اكتمل العمل الجراحي وغدت بيروت عاصمة لهذا الجزء من الجسم المكلوم والمتألق في جراحه. لم يكن الكل في هذا الكيان متوافقاً مع الكل، لكن من أراد لهذا البتر أن يحصل وجد أن لا سبيل إليه إلا عبر الدانتيل الفرنسي المغري.

وقفت أنا وحازم على كورنيش الروشة صامتين. كان شهر شباط دافئاً سمح لأعداد من الناس بالتنزه جيئة وذهاباً على طوله المطل على صخرة الروشة. لقد كنا مازلنا عالقين في شبكة الحيرة. وتطلعت إليه بطرف عيني شبه المطبقة من قوة الشمس فرأيته يتأمل البحر وقد تغضن جبينه وكأنه يعيش لحظة شعورية

مكثفة ما. اقتربت منه أكثر ولمست يده الموضوعة على سور الكورنيش فابتسم بهدوء واستدار وقال:

- لا أحب أن يكون هناك توتر بيننا.. أشعر بحجر جاثم على صدري.

- لم يحدث شيء.

- لا أريد لشيء أن يحدث.. انسي العمال السوريين الآن، انسي روايتك وانسي تعليقاتي.. كل هذا الهاء في التفاصيل لا أريده... انظري إلى هذا البحر يا مريم، لو كان له فم لنطق. لا أريد أن نضيع الحاضر في تقليب المواجع. لقد حملت الطحين على كتفي لكل بيوت الحي خلال الحرب. كان السوريون يضربون من جهة وحركة أمل من جهة والقوات من جهة والفلسطينيون يحلمون بالعبور إلى القدس من هنا، كان كل شيء مطبقاً على رؤوسنا، أحزاب وتيارات وزلم وأسلحة وقناصة وجبهات صغيرة وأخرى كبيرة وحواجز.. كان الصالح ضائعاً بالطالح. لا نريد تقليب المواجع أرجوك يا مريم. دعي الأمور تمش على هواها. لا تعمدي إلى نكشها وتحريكها. اتركي البراكين ترقد في مواقدها ساكنة. وتعالي لنحرك براكين من نوع آخر. اقبلي معي.. فقط اقبلي. ثقي بي. من يحبك أكثر مني في هذا العالم؟ من..؟

وتطلعت إليه وأجبت: لا أحد.. يقيناً لا أحد!

- كانت الحرب مهولة يا مريم. كنت يافعاً ويملؤني الطموح. قبعة جيفارا، شعر ولحية كارل ماركس، بذة كاسترو العسكرية وطريقة كلامه، موسيقى زياد الرحباني.. لا تتطلعي إلى الصليب على صدري. لم أضعه أنا وإنما هي الحرب التي حفرته حفراً على صدور الجميع. الحرب الكافرة حفرت الصلبان والمصاحف على صدورنا. هذا ما تفعله حروب الأهل والجيران يا حبيبتي، تجعل

الكل متمترساً وراء دينه. أصبحت متديناً مع الوقت ولم أكنه أبداً فيما مضى. لا تقلبي المواجع يا مريم فما خفي كان أعظم. لقد خرج والدي من المنزل عام 82 ولم يعد. كان عيد الميلاد بعد يومين تماماً لكننا لم نكن في حالة تسمح لنا بشيء من الفرح. غاب والدي عن المنزل منذ ذلك التاريخ وما زال غائباً. لم أكن أريد أن أكنى بابن شهيد أو ابن مفقود.. كنت أريد أن أحتفظ باسمي فقط ولكن هذا كان مستحيلاً في هوجة الحرب. كان علي أن أكون شيئاً ما، لقباً ما، أن أكون معنوناً ومنتمياً. لم يكن هناك رجال ونساء خارج السرب في الحرب. كنا جميعاً محلقين في أسرابنا المختلفة والمتشابكة فيما بينها. لم تكن هذه الحرب تشبه أحداً ولكنها جعلتنا جميعاً نشبهها.

أخذ حازم يدي بيده وقال هيا بنا من هنا. انطلقنا إلى الجبل مرة أخرى، إلى منطقة غزير الجميلة وكنا كلما ارتفعنا أكثر عن سطح البحر شعرنا بالخفة والراحة أكثر. أما حازم فقد عاد إلى مزاجه الحيوي مرة أخرى وبدأ من جديد يترنم بأغانية الفرنسية القديمة وهو يبتسم لي ويغمز من طرف عينه. ووقف الزمن مرة أخرى في هذه البقعة من العالم، وقف في قلبي وفي قلب حازم ولاحت لي الدنيا طيعة وأن تحميلها إلى ما فوق طاقتها ضرب من الجنون. ماذا أفعل بالماضي وقراءة التاريخ والجغرافية اللئيمة التي تفرض نفسها فرضاً. الجغرافية عاشقة ولهانة لا تصدق أن الرجل الذي تعشق لم يعد لها أبداً.

بلبل رنين هاتف حازم صفاء اللحظة فتوقف عن الدندنة وتوقفت معه أفكاري وسكن الحب. كان زميل حازم مروان على الطرف الثاني من الخط. فهمت من كلمات حازم المتقطعة والمقتضبة وترديده العصبي لكلمة حاضر... حاضر.. مسافة الطريق أن عليه أن يعود أدراجه إلى الجريدة. أغلق حازم الخط

وأوقف السيارة في الحال على جانب الطريق وضرب على مقود السيارة مرتين بعصبية.

- ماذا حدث؟ أخبرني ماذا حدث؟

- هناك انفجار هائل قرب السان جورج. قتلوا رفيق الحريري.

10

اعطت معاهدة 1936 للبنان استقلاله لكن الفرنسيين كانوا باقين فيه. لقد استعمل إميل إده رئيس الجمهورية آنذاك أفخر أنواع الحبر للتوقيع عليها بينما استل الكونت دو مارتيل المفوض السامي الفرنسي قلمه من جيبه الخاص. كانت القومية العربية في بداية كساحها وبدت الطائفية مارداً صغيراً ينمو بدلال في حضن الدولة الوليدة. سوف تُعَلِّم إسرائيل في حروبها اللاحقة بعض مسيحيي لبنان أن العدو هو العروبة (سوريا) ولا شيء آخر سواه؛ درس بُدلت أغلفة كتبه كثيراً فيما بعد ولكن بقي هو نفسه طوال الوقت. لقد خلق هذا الدرس، بالمقابل، عقلية الفتح الإسلامي، وهكذا فُتحت أبواب البلد لكل أجنبي من أجل حماية الطائفة، وبدا البحث مذ ذاك عن استقلال وطني للبنان لا عن فرنسا وإنما عن العروبة.

لم تُنزل طرابلس العلم السوري عن المدينة وتوقفت الحياة لبرهة بينما كانت الأوهام، الأوهام الكثيرة تتراكم ككرة الثلج والآمال والأحداث معها. لقد اندلعت الحرب في أوروبا عام 39 واحترقت بنيرانها القارة كلها تقريباً وبحجتها ألغي الدستور اللبناني وعادت حليمة الفرنسية إلى عادتها القديمة.

لقد اجتاحت قوات الحلفاء البريطانية والفرنسية الديغولية

سوريا أثناء الحرب العالمية الثانية. بعد احتلالهم لباريس، وضعت بريطانيا مع حكومة ديغول المقاومة خطة مشتركة للزحف على الدولتين في منتصف يونيو/ حزيران عام 1941. أما بيروت فكانت جزءاً من العمليات الحربية التي وصلت إلى الدامور خوفاً من تقدم الانكليز. لكن الانكليز تقدموا أكثر مما هو متوقع لهم بينما ترك الجنرال الفرنسي (دانتر) بيروت حاملاً معه جميع احتياطي البلدين من الذهب الذي كان موجوداً في مصرف سوريا ولبنان مستبيحاً اتفاقية الهدنة جملة وتفصيلاً.

أُعلن استقلال لبنان ثلاث مرات قبل أن يستلم الجنرال (كاترو) منصب المفوض السامي الفرنسي الجديد باسم فرنسا الحرة. هذا ما دلتني عليه بسهولة قراءتي لتاريخنا الحديث المدون بالعربية. لكن العثور على الرسائل الديوانية الفرنسية الخاصة بتلك الفترة التي قضت مضجعي جعلني أتبلبل قلقاً من إعلان كاترو لاستقلال لبنان وسوريا. لقد كتب كاترو بفرنسية مفخمة رسالة إلى وزير الدولة البريطاني في القاهرة آنذاك وذلك قبل أسبوع من إعلانه لاستقلال البلدين أن «فرنسا قد جعلت من لبنان قاعدة لسياستها في المشرق آخذة بعين الاعتبار ما تحتاجه السياسة في هذا البلد. إن لبنان الموحد ضروري لمصالحها ولن يضر بمصالح بريطانيا العظمى، لهذا من اللازم للقوى الغربية التي تتضامن معاً دائماً، شاءت أم أبت، في وجه المسلمين، أن يكون هناك دولة تدين لها بالولاء وتمثل ثقلاً معادلاً للدول العربية المستقلة مسلمة الديانة. إن هذا الثقل المعادل هو ضروري في الحرب بسبب الموقع الجغرافي والبحري للبنان وضروري في السلم لأن لبنان بواجهته المتوسطية المتوجهة نحو أوروبا هو رأس الجسر الذي يمثل المنفذ إلى الداخل المسلم».

لقد أسقط من يدي. لم يعد هناك مجالاً أمامي لكي أتطلع لما

يحدث حولي بنية طيبة. لقد أهلكتني الريبة وجعلت هذا الاستقرار الذي أضع قدمي عليه الآن براحة مسترخية، منهوباً مرة ثانية بتوقع زلازل كثيرة قادمة. ليست بيوتنا من طين كما كانت عليه عندما هدت المدن فوق رؤوسنا وانقلبت غائصة في عمق الأرض بسبب زلازل الماضي، إنها أكثر صلابة اليوم، فموادها عالية الجودة «مستوردة» وممهورة بإمضاءات العباقرة الغربيين.

حلق طيران القوات الحليفة على علو منخفض فوق المدن السورية في صباح الثامن من حزيران عام 1941 وألقى منشورات ورقية ملونة فوق أسطح المنازل الهاجعة تحت الشمس، يعترف بها كاترو باسم ديغول بأنه دخل مع قواته أراضي هذين البلدين لإيصالهما إلى استقلالهما بمجرد نهاية الحرب. لقد أمكن لهذا الجنرال النحيل، العسكري ابن العسكري، أن يبرر تواجد قوات فرنسا الحرة والقوات الانكليزية كنتيجة الخوف من رجال هتلر النازيين، كما عرض صفقته الأخيرة بحنكة فرنسية تليق بمنسق أزهار أو طباخ قائلاً إن قبول التعاون معه يحمل من المزايا الكثير، أولها رفع الحصار عن البلدين، والتمتع بكل العلاقات المتاحة مع البلاد الحرة الأخرى التي تتعاطى بالجنيه الاسترليني، وهكذا «تفتح بوابة التجارة على مصراعيها أمامكم». لقد رمى كاترو بمهارة بمبلغ الرشوة الكبير على الطاولة السورية واللبنانية.

بعد عام وقفت سيارة شيفرولية سوداء رسمية أمام باب السراي الحكومي في بيروت وترجل منها أميركي اسمه (ودزورس) كان قد تم تعيينه كمندوب برتبة وزير مفاوض لبلده. كان الرجل يحمل في حقيبته أوراق اعتماده التي قدمها إلى ألفريد نقاش رئيس الجمهورية آنذاك بعد أن ألقى كلمة بلاده أيّد فيها استقلال لبنان كبلد «سيد وحر».

كان الاستقلال يكتمل شيئاً فشيئاً بمباركات تراكمت فوق جسد بيروت الجميلة وكأنها بغي في معبد كرس لإلهاء الحجاج والمارقين. بيروت الجميلة المقطعة الأوصال، الاحتفالية الهيئة والمستعدة لدورات حب جديدة محبة لله ولا شيء غيره.

في تشرين الثاني عام 1943 تسلم المندوب السامي (هيللو) من الحكومتين اللبنانية والسورية رغبتهما في أن تتحول المندوبية الفرنسية إلى تمثيل ديلوماسي. كان بشارة الخوري على رأس الدولة ورياض الصلح رئيساً للوزراء حين أيقظهما العسكر الفرنسي في الثالثة بعد منتصف الليل وألقوا القبض عليهما ورموهما في قلعة راشيا. التمثيل الدبلوماسي كان لا يليق بطموحات الجنيه الاسترليني لكنه كل ما تبقى أمام فرنسا (الحرة) وهي ترى جنون الاضطرابات في عرض البلاد وطولها.

لكني لم أعرف إلى هذه اللحظة مم استقل كلا البلدين! أمن فرنسا؟ أمن العروبة؟ أم من بعضهما البعض؟

توقفت سيارة حازم أمام باب بيتي في جونية. كانت الساعة قد قاربت الثالثة بعد الظهر. أمسك يدي وتطلع بي وقال بحزم وخوف: من الآن وصاعداً لا تخرجي من البيت قبل أن آتي وآخذك بنفسي. انتظري اتصالي هذا المساء. لم يقبلني. لقد بدا قلقاً وعصبياً وواجماً. أما أنا فتركته يرحل ناهباً بسيارته الإسفلت المحسن الذي رصف به شارع البيت.

11

14 شباط 2005.

توجه رفيق الحريري رئيس وزراء لبنان المستقيل حديثاً سيراً على الأقدام مع (شلة) من أصدقائه إلى مقهى في مقابل مجلس النواب اللبناني في ساحة رياض الصلح. كان الطقس ينذر بربيع آتٍ قبل أوانه والوسط التجاري المحسن لبيروت يعيش أكثر أيامه تدفقاً وتفتحاً والحياة تبدو أكثر وعداً بالرغم من الذبذبات الكثيرة اليومية التي تميز الحياة في لبنان. أما السوريون فقد كبحوا من اتصالاتهم مع حكومة أميركا بعد أن لمسوا نيتها في رؤيتهم يغادرون البلد بلا رجعه، ومراقبة الانتخابات النيابية عن كثب خوفاً من أي «تدخل أجنبي». لقد كان جلياً أن الأمر قد حسم منذ فترة في هذا الاتجاه، وأن جرحاً لم يندمل أعيد فتحه مرة أخرى بمهارة لن يتمكن أحد لاحقاً من مجاراتها.

كانت البلد قد ورثت تفتتاً مؤلماً من جراء الحرب الأهلية المنهكة، حرب الأخوة والأهل والأصدقاء. وكانت كل طائفة متمترسة وراء زعيمها الروحي، تقاتل بسيفه وتقدم من أجله ولأجله الولد والبلد. ولدت أحزاب الجيل الثالث وبرزت أثناء الحرب وكانت نتاجاً لها. لقد عرفت كيف تنتقل من الفكرة إلى السلاح فخاضت حروباً ضروسة فيما بينها كما عقدت الأحلاف

التي لم تعرف الاستقرار يوماً. إنها لا تشبه أحزاب العشرينات حينما كانت الدولة الوليدة مجرد حلم يسعى إليه البعض ولا تشبه أحزاب الدولة المستقلة للتو والخارجة من عباءة الدانتيل الفرنسية والمنفصلة جراحياً عن سوريا، ولا هي مثل الأحزاب المنظمة التي كانت تضج قبل الحرب الأخيرة والتي رافقت الحزن الذي خلفته هزيمة حرب الـ 67 وظهور قيادة جديدة للفلسطينيين، ولا حتى هذه الطفرة النفطية التي اكتسحت العرب بعد حرب 73. لقد حلت أحزاب الحرب اليوم مليشياتها ومقاتليها ونزعت لباس القناصة واستبدلت بها ربطات العنق الأكثر دبلوماسية وتنميقاً. وبينما اختفى بعضها، مُنع البعض الآخر من الممارسة. أما حزب الله فقد بقي وحده يجمع بين العملين السياسي والعسكري، ويطوي تحت جناحه أكبر قسم من شيعة لبنان. لم تلق بالاً هذه الأحزاب خلال حرب الأهل لأشياء أكثر حيوية مثل الديمقراطية، فالبقاء على قيد الحياة في أدغال القتال كان شغلها الشاغل، كما لم يكن وارداً أخذ بعض الوقت من أجل شيء من الإصغاء أو الحوار. لقد عولج الدين حينها بكل بشاعة، فألصقت صور مريم العذراء بعجالة على كلاشنكوفات بعض الأحزاب المسيحية، كما كان مقاتلو الأحزاب الأخرى يلهجون باسم الله مع كل طلقة هاون.

كان الحريري محاطاً بمجموعة من أصدقائه المقربين في المقهى حين بدأ الدفاع عن نفسه قائلاً.. «إنهم يشككون بوطنيتي وعروبتي. لكن ردي بسيط: لا أحد يمكنه المزايدة علي. لابد أنكم لاحظتم أنه بالرغم من الانقسامات التي هدت البلاد مؤخراً إلا أنني تمسكت باتفاق الطائف.» هز الأصدقاء رؤوسهم علامة الموافقة بينما تمتم البعض الآخر مؤيداً. بعد نصف ساعة غادرهم، يقود سيارته بنفسه باتجاه قصره قرب فندق السان جورج. لم يصل الرجل أبداً إلى منزله فلقد صعق انفجار جسده في الحال وهكذا

انطفأ ضوء فوق مسرح كبير صاخب بين ذهول الحاضرين والممثلين أنفسهم.

لقد أربكتني قراءة التاريخ لدرجة التبس علي الزمن والتواريخ فاختلطت الحقب وتطابقت وتباينت ثم اتسقت كلها فجأة معا وكأن ما يحدث هو ما كان دائماً وما سيبقى قائماً. لقد بدأت عسكرة الأحزاب اللبنانية في السبعينات، أما غرضها فكان الانتصار على محاور القتال التي كانت تنتشر في بيروت بينما كان الحوار بينها يدار من وراء المتاريس. في تلك الأثناء، كان والدي يعد العدة لكي نعود إلى بيروت. قال لي إنه يريد أن يعود لأن هناك تقطن بقية العائلة والأفضل أن يلتم شمل الجميع. حين سافر مرة إلى (ضهور شوير) فاجأه أن أسماء أشقائه وشقيقاته وأبناء عمومته كانت مكررة في بقية فروع العائلة فيها. لم يكن هناك برهان أقوى من هذا بالنسبة له. حين اندلعت الحرب لاحقاً دُفن هذا الحلم في مهده وانتهى إلى غير رجعة. مات والدي بعد ستة عشر عاماً بطريقة دراماتيكية في مدينة سان دييغو الأميركية بعد أسبوع من وصوله إليها قضاه شبه غائب عن الوعي بسبب المرض. لم يذكر هذا الحلم خلال هذيانه. جل ما قاله هو أنه يريد أن يدفن حيث نكون أنا وإخوتي. وهذا ما حصل. لقد كان للحب حسابات أخرى بالنسبة لرجل مريض تماماً، كما كان الحال ولازال ربما في هذه الأحزاب التي ضرجت وجه بيروت الجميلة بالوطنية القاتلة التي لم تعرف كيف تقود معاركها الخاصة، وإنما بقيت مثل آليات حرب مهترئة تُدار من مكان ما بعيد.

أردت أن أفهم بكل ما لدي من قوة شيئاً عن تاريخ مدينة حازم. كنت أرى تفاصيل هذا التاريخ في كل لفتة من لفتاته وكل حركة وكل إيماءة أو كلمة. حتى كلمات الحب كان لها طعم أرض محترقة مر عليها مرتزقة مدججين بلباس غير نظامي وطموحات

دينية خرقاء. «الحب يجتاحنا ويخلفنا حطام من دون أسلحة» العبارة التي يحلو لحازم أن يرددها دائماً أمامي وهو يمسك يدي منتشياً من الحب ونحن نجلس في زاويتنا المعتادة في مقهى «الكاستيل» في شارع «الكلسليك» الذي يعج بالجواسيس والسياسيين. تاريخ بيروت يشبهه، بل إنهما صورتان طبق الأصل. تُرى من أين أتى حازم بكلمات الحب الصريحة وبهذا الميل الفاقع للديمقراطية وتلك الرخاوة في فهم «دوافع العدو»؟؟ لم تكن أحزاب البلد نقية خالصة وربما يجب علي ألا أفهمها هكذا ولا الصراع فيما بينها على أنه صراع بسيط من أجل خير هذا الوطن. كان هناك حبل سري يربط بينها وبين حروبنا مع الصهاينة ووجود الفلسطينين المسلح في بيروت. لقد كان زواجاً مزدحماً هذا الذي عقد على جسد المدينة المكلومة، المدينة المتعددة الأزواج. لبناني وفلسطيني وسوري؛ رجال كثر هدتهم الغواية فتعاركوا فيما بينهم وتناطحوا وعقدوا الأحلاف والاتفاقيات واقتسموا وقسموا وشربوا الأنخاب وبكوا وتصافحوا وفرحوا وعادوا مرة أخرى كل منهم، بعدما انتهت الحرب، وراء متراس ربطة عنقه الأكثر أناقة وابتذالا في آن يقدمون الهدايا حيناً والتهديدات حيناً آخر وهكذا الحياة تسير. لم أعثر على «قضية مشتركة» لهذه الأحزاب وأنا أتصفح يوميات الهول. لقد قال لي حازم إنه لو كان لبحر بيروت فم لنطق ولحكى ما لم يُحك. لقد انفلقت حتى صفوف الحزب الواحد وتصارعت فيما بينها، فخرجت القوات اللبنانية عن القيادة المدنية لحزب الكتائب وكذلك داخل أحزاب أخرى كالحزب السوري القومي وفي حركة أمل وإن كان بطرق أخرى بعد أن ذهب زعيمها «موسى الصدر» إلى ليبيا ولم يعد.

حين كنت أقول لحازم إن (القوات اللبنانية) كانت تحت تأثير

إسرائيل كان يرد إن الأحزاب القومية واليسارية كانت تحت تأثير السوريين والفلسطينيين. وحين كنت أقول له إن الأحزاب المسيحية تقاتلت فيما بينها في المنطقة الشرقية لبيروت كان يرد أن أحزاب الحركة الوطنية أيضاً تقاتلت فيما بينها في بيروت الغربية كما اندلعت «حرب المخيمات» بين حركة أمل المدعومة من سوريا وبين الفلسطينيين الموالين لعرفات، وجرت تصفية منظمة (المرابطون) عام 1985، المدعومة من فتح، على يد حركة أمل والحزب التقدمي الاشتراكي. حتى في الجنوب، قالها بحماس وانفعال، لعلع الرصاص بين أمل وحزب الله في أواخر الثمانينات بينما روعت النزاعات المسلحة شوارع طرابلس بين حركة التوحيد الإسلامية والحزب الشيوعي، والفصائل الفلسطينية المسلحة. ردوده التي تشبه طلقات رشاش تجعلني أصمت.

كان وجه حازم يتغير كلما مر ذكر الحرب في حديثنا الذي لا يتوقف. كنت أشعر أني لا أعرفه، رجل آخر، قناص، ميلشياوي وليس حبيب أو بطريرك بلكنة فرنسية خالصة. وحين تركني الليلة أمام باب البيت مع كلمات قليلة مقتضبة كان المطر قد بدأ يهطل خفيفاً ونسمات باردة أخذت تحرض أحواض الزرع أمام باب المبنى. لقد كان قلبي هاجعاً على مرارة جديدة لم أكن أعرفها من قبل.

حين رآني عبد الرحمن البواب السوري هرع باتجاهي وهو يحمل مظلة سوداء كبيرة.

ـ ياست مريم كنتي خبريني قبل ما توصلي.. أنت من عضام الرقبة.

ـ شكراً يا عبد الرحمن.. ما كنت عارفة.

ـ هل سمعت بالخبر؟

ـ نعم.. سمعت.

رافقني عبد الرحمن مع المظلة حتى مدخل المبنى الداخلي وهو صامت. كان الرجل في الخامسة والخمسين من العمر شبه محني من الخطوات العجولة المنكسرة أمام سكان المبنى الفخم، وحمل أكياس التواصي والعيش في غرفة تشبه الزنازين صغيرة لثلاثين عاماً أُطلق عليها من دون تردد «بيت الكونسيرج». وفوق هذا وذاك لم يكن للرجل أي ضمان صحي أو أي ضمان آخر، فليس هناك سوى معاشة الشهري و«البخاشيش» التي يمن بها عليه بعض السكان من وقت لآخر. لم يخلع عبد الرحمن «الفيلد» الخاكي القديم يوماً طوال فترة عمله كبواب للبناية ولا البوط العسكري الذي صمم لقتال الجبال والشوارع.. قال لي إنه أحب هذه البلد (من كل قلبي) ثم إن اللبنانيين يأنفون من الأعمال الوضيعة في الزراعة والبناء والتنظيفات أما نحن فشعب يريد أن يعيش ولا يضيرنا أن نكدح، وفي النهاية لا يوجد سفارة ولا حدود (متل الخلق) ولا نحتاج إلى تأشيرة و(خلينا هيك أحسن).

أتى عبد الرحمن إلى بيروت جندياً صغيراً مع قوات الردع العربية قادماً إليها من مدينة الرقة الواقعة على ضفاف الفرات في شمال سوريا وبقي فيها بعد أن رحلوا. بعد أن أنهى خدمته وجد عملاً بسرعة كعامل في محطة بنزين من دون أن يملك تصريحاً بالعمل، ثم ما لبث أن عمل بواباً في المبنى الذي أقطن فيه وبقي فيه مذاك. هناك ندب كثيرة على وجهه وآثار وشم على ساعده لربما كانت تقليداً بدوياً في مدينته لكن آثار الغبن والتعب لا يمكن أن يخطئها مخلوق. لم يكن عبد الرحمن متزوجاً، ولم يتمكن من تجميع ما يكفي لكي يعود إلى مدينته ويجلب (ابنة الحلال معي). كان معاشه (بالكاد يكفي حق خبز.. وبيروت غالية يا ست مريم وأنت أدرى). مع ذلك حاله أفضل من غيره كما قال لي. ابن عمه سقط من على سقالة بناء ومات من دون أي تعويض. كان يتسلقها كل يوم (المسكين من دون خوذة معدن على رأسه فوقع ومات فوراً وبعدين دبرنا نبعتو لاهلو مع شوفير سوري). لقد كان عبد الرحمن

يخاف من الطرد في أية لحظة، وعند أية غلطة أو مزاج غير رائق يتبدى من أحد سكان المبنى. إنه لا يملك عقداً للعمل (ولا حتى شقفة ورقة بتقول إني اشتغلت يوم بهالبلد). لقد كان الرجل مكتفياً بنفسه ومنطوياً على أسراره ولقمة عيشه. لم يصادق لبنانياً طوال فترة عمله (وليش بدي أصادقهم إذا كانوا بيكرهونا.) كان يملك جهاز تلفزيون صغير بالأسود والأبيض (بيخش وصورتو مش واضحة بس بقدر اسمع الصوت).

12

كان عبد الرحمن بطلاً لروايتي التي أعتقد خطيبي حازم أنني بالغت في اختيار موضوعها. كل شيء هو على ما يرام بالنسبة له، أو ربما لا يريد تقليب المواجع كما قال لي! أحياناً يخفف التطلع المباشر في المصائب من حجمها في عقولنا بينما يضخمها أضعاف الهروب المتواصل منها. قد لا تكون نكبة العمال السوريين ما يرفض حازم مواجهتها، وإنما عنصرية التعاطي مع من هم أدنى من اللبناني في المقام والغنى. أعرف قلبك يا حازم، أعرفه كباطن كفي. أنت أيضاً تتألم مثلي ولكن في سربك الخاص. وحين تكون سعيداً ومنتعشاً تريد أن تنتشلني من (هذه الجورة التي حبست فيها نفسك) كما تقول وتزرعني في أحد قبور منطقة غزير الجميلة. قبرك ها هنا؛ عبارتك الأشهر لكي تدلل على حبك لي ورباطنا الأبدي.

لكنك الليلة غائب، غارق في زحمة الاتصالات التلفونية في مكتبك في دار النهار، فالحدث لم يكن متوقعاً وهناك الكثيرون ممن يهوون حياكة الكروشيه حول الأقمشة الملونة. وسوف يحاك الكثير من الكروشيه الغريب والمعقد حول مصيبة موت الرجل وستظهر فجاة أبرع الأيدي المهرة، وسيكون هناك الكثير من الخيوط والقطب والرسوم التي لا تخطر على بال. ستتحول البلد

إلى ورشة لحياكة الكروشة الذي يشبه الغربال الكثير الثقوب، الكروشية المرجرج والرقيق والذي يوحي بالقدم والأصالة. إنه كروشية بداية القرن الماضي نفسه، كروشيه الرغبة في عمل جراحي يفلق هذه (البلاد) ويشرب نخب استقلالها. إنه ليس كقميصي الذي تغزلت به مرة وحاولت أن تضع أصبعك في أحد ثقوبه وقلت فيه شعراً ارتجالياً في المساء نفسه بينما طعم الكونياك يفوح منك. شتان بين الاثنين يا حازم لأن قميصي كان بلون الحب أحمر قانياً، فضفاضاً وبسيطاً من دون زخارف كثيرة بينما كروشيه التيه كان خاكياً معسكراً وتطريزاته متشابكة مثل حصيرة الغجري. لا تتلفت إليه أبداً إنه لا يليق بأشعارك ولا غزلك ولا تصرف وقتاً في تقليب خيوطه أو التأمل في رسومه وإن فعل كل زملائك في العمل. ابق بعيداً عنه محبة لله وهاك قميصي إنه لك، ضع أصبعك في كل ثقوبه وعاينه عن قرب كما فعل توما بثقوب جسد المسيح ولا تكن شكاكا أو تجعل بصيرتك تخنك لحظة من أجل الباطل. لا تحلق يا حازم كثيراً في سرب الحائكين والمطرزين وبياعي الأقمشة الملونة وابق قريباً من قميص الحب البسيط. أليست القديسة جان دارك هي من أوحت لك به؟

ربما سمع حازم هواجسي وأنا أفكر من وراء زجاج غرفتي بينما المطر بدأ يهطل خفيفاً، وربما لم يسمع لكني كنت قادرة على تخيل خلية النحل في مكتبه وهذا الجنون الفالت من عقاله الذي بلبل المدينة الحذرة.

حضر حازم إليّ قبل منتصف الليل. كنت قد تجنبت الاتصال به لعلمي صعوبة ذلك. لكنه أتى وأنا أهيئ نفسي للنوم. كان منهكاً والقلق يثب من عينيه المتعبتين. قال إنه ليس جائعاً ولكن يريد أن يتحدث معي قليلاً. خفت من نبرة صوته الجدية وتوتره الذي حاول

إخفاءه. جلسنا في المطبخ لكي أعد فنجان قهوة بينما أخذ هو يتحدث بشكل متقطع ومرتبك وعينه على جدار الدير المقابل لشرفة المطبخ:

- اليوم عيد الحب.

قلت من دون أن التفت إليه بينما أقلب القهوة التي تفور.

- نعم..

- موت الرجل مصيبة يا مريم. أنا لم أكن موافقاً على الكثير من مواقفه لكن موته قلب الموازين كلها.

- ....

- إنهم يتهمون سوريا.

التفت إليه بسرعة وتطلعت في عينيه مباشرة من دون أن أرد بكلمة.

دفع حازم باتجاهي على الفور بعلبة صغيرة من المخمل:

- Happy valentine حبيبتي. لا تتطلعي إلي تلك النظرة.. لا أريد لسحنة الحب هذه أن تزول من صفحته الملائكية. أرجوك.

أخبرني حازم أنه كان أطول يوم في تاريخ المدينة. لم يكن مر على موت الرجل ساعات حتى أخذ السوريون المقيمون في البلد خصوصاً في منطقة «الكولا» يرحلون عنها. فلقد اقتحم هذه المنطقة نسوة غاضبات مع شبان أخذوا يطيحون بالمحلات التي يملكها تجار سوريون. لقد أحرقوا أيضاً المقر الرئيسي لحزب البعث التابع لسوريا، والذي كان فيما مضى مركزاً لمخابراتها. وكذلك أشعلوا وهم في قمة الغضب الأهوج دواليب السيارات في

شوارع المدينة رافعين أعلام «تيار المستقبل» الذي يتزعمه المغدور وصوراً له. كانت سحابة الحب الصباحية قد أمطرت كلها دفعة واحدة ولم يبق فيها سوى بقايا من الكحل الأسود في قعرها. لقد زحف الغاضبون من كل مكان باتجاه محيط مشفى الجامعة الأمريكية حيث الجثمان المتفحم بينما علت الشتائم اللبنانية المشهورة في الردهات الخارجية للمبنى تسب سوريا من رأسها إلى أخمص قدميها.

كان حازم في غاية الحذر في انتقاء كلماته وهو يخبرني بما حصل مراقباً انفعالات وجهي وأنا أصغي بذهول وتفكر. لم يكن لدي ما أقوله. لقد بدت الدنيا لي كشبكة صيد كبرى علق فيها تاريخ الشام كله بحلوه ومره، بمعاهداته وأحلافه وتقسيماته ورجاله ونسائه وطوائفه الثمانية عشرة.

لم تعد هذه بيروت التي أتحضر لكي أتزوج فيها قريباً أو أحضر حفل توقيع كتابي الجديد. لقد تغير كل شيء خلال ساعات وكأن الدنيا قلبت على قفاها. امتلأت المدينة بكل وسائل الإعلام التي تخطر ولا تخطر على بال. كيف اكتشف المعارضون وأهل الفقيد بعد ساعات على مقتله هوية المرتكبين الله وحده يعلم!! قال لي حازم إن قصر الراحل كان يضج بالأهل والأصدقاء وأفواج من الناس دفعهم الانفعال إلى الحضور والعزاء. وبالرغم من سكون شوارع المدينة التي لم يكن يجتازها إلا السيارات العسكرية أو المواكب السياسية أو المظاهرات، ترك الأمن الحشود تصل إلى قصر «قريطم» الحريري وكذلك فعل مع الصحفيين والشخصيات الأخرى. لقد امتلأ الطابق الخامس في مبنى الاستقبال في القصر بهم وبالنواب الذي طال الشحوب وجوههم. أما خارج القصر فكانت وفود تأتي وأخرى ترحل بعد أن هدّها البكاء لتأتي أخرى ذات حماس متجدد معلنة أسماء مناطقها البيروتية التي أتت منها

ولتبدأ بترديد كلمات الثأر مقفاة وملحنة. أما في أطراف المدينة فكان يعبر المتظاهرون وهم يرددون شعارات غير مفهومة ولا أحد يعرف ماذا يرمون من ورائها من دون أن تعترضهم القوى الأمنية التي كانت آلياتها تمر بالقرب منهم على عجل.

في اليوم التالي أرسل حازم عاملين إلى بيتي لكي يتأكدا من سلامة متانة الأبواب والأقفال والشبابيك. لقد حضرا في الصباح الباكر مع عدة الشغل وافترقا في المنزل متسلقين الأبواب من الخارج وكل منافذ البيت. لقد أحكما إغلاق النوافذ التي تطل على «مطلع السلم» من الخارج بالقضبان كما ضاعفا من عدد الأقفال على أبواب الشرفات والباب الحديدي الخارجي وأصلحا الخلل في نافذة غرفة نومي في الدور السادس، وحينما انتهيا اتصل بهما ليتأكد من أن كل شيء تم على ما يرام. لم يكتف بذلك، إذ عند الظهيرة أرسل مع عامل آخر تمثالاً للسيدة العذراء بطول متر وهي في وضعية التضرع لكي أضعه في زاوية خارج باب البيت الخشبي ومعها «دزينة» من شموع ثخينة طالباً ألا تتوقف عن الاشتعال أبداً، ثم عاد واتصل ليتأكد من وصوله وليطلب مني عدم الخروج من دون علمه «لأني أخاف عليك كبؤبؤ عيني يا روحي... الوضع مش مرتاح هاليومين وأنت سورية».

لم يسهر الوسط التجاري لبيروت تلك الليلة التي ملأها دخان الانفجار. كان الحب وعيده منسيين، مؤجلين ومتروكين كصبية صغيرة على قارعة الطريق. ففي هذا الوسط بالذات الذي بناه الرجل حفر آخرون قبراً له فيه. أغلقت مدارس المدينة وجامعاتها ومحلاتها التجارية ومصارفها ومكاتبها بعد أن أعلنت الحكومة الحداد ثلاثة أيام على المغدور وشل البلد إضراب عام.

غادر حازم منزلي في الصباح الباكر. قضينا الليل في المطبخ

ندردش ونفكر في فوضى الأيام القادمة. لقد كنت أصغي إليه بينما عقلي يفكر في شراشف الكروشيه الكثيرة التي سوف تفرش فوق هلع البلد. لقد بدأ هو الآخر الحياكة أمام عيني بينما كان يرتشف القهوة التي أعددتها له بيدي.

13

16 شباط 2005

امتلأت شوارع بيروت بنقاط تفتيش عسكرية غير مسبوقة. لقد استدعوا الجنود الذين كانوا في عطلات، كما علقت جميع الإجازات في الجيش. أما حكومة أميركا التي «صُدمت وغضبت» مما حدث فقد أخذ رجالها يرددون أنه يحق لهذه الدولة من الآن وصاعدا أن تعيش من دون عنف وبعيداً عن «الاحتلال السوري». حتى فرنسا التي احتلت لبنان سابقاً طالبت بإجراء تحقيق دولي وذلك لأن رئيسها كان يريد «معرفة الحقيقة». لقد وقع لبنان في الأسر ثانية.

أيقظني اتصال حازم ليطلب مني ألا أخرج من المنزل. قال إن الجنازة اليوم ستعم المدينة وربما أطراف البلد كلها. (إبقي في المنزل ولا تتحركي ولا تخرجي إلى الشرفة.. افتحي التلفزيون وانتظري اتصالا مني).

لقد تركتني هذه الجريمة أنتبه لما هو أكبر من مجرد الالتفات الرومانسي إلى أرض قسمتها معاهدات وأعادت تشكيلها أحلاف بينما أبقى على وحدتها العائلات والأقارب الذين تفرقوا في الجهتين. أنا في المدينة التي أحب محاصرة لا أستطيع الخروج

إلى الشرفة كما أمرتني يا حازم. أنا في بيروت مدينة قلبي، المدينة التي زرتها أكثر من ألف مرة بل آلاف المرات والتي أشعر بالألفة الحلوة تجاهها. سأنسى جذوري اللبنانية، سأنسى كل هذا، من يعرف أصلاً جذوره في بلاد الشام، العائلات تشرذمت هنا وهناك وبات تحديد بداية الجذور ونهايتها أمراً مستحيلاً. اليوم بدت بيروت لي فيلماً بالأبيض والأسود بينما اللاذقية هي فيلم ملون حديث. لم تعد تغريني قراءة تاريخك القديم أيها البطريرك. لقد أصبحت أعرف من أين أتى البعض بهذه المقدرة على تصديق ما لا يصدق بلمح البصر.

بيروت تشبه المرأة العربية. إنها جوهرة جميلة في كل طبقاتها لكن مستباحة ومخترقة. إنها هذا القسم الناعم المتألم والدامي من تاريخنا العتيد، وهي خزان الحزن الكربلائي والحنان الآسر. إنها تنتظر، ولدت لكي تنتظر، علّموها أن تنتظر بعيون خفيضة وقلب مكسور. قالوا لها إن الانتظار شيمة الكريمات والمحترمات وبنات الأصول... قالوا لها إن العيون الخفيضة هي أهم ميزات الأنثى وقمة الحشمة والإغراء في آن. قالوا لها إن قوتها في ضعفها. طلبوا منها الانتظار وهكذا بقيت متحفزة ومتوجسة في انتظارها الذي لا ينتهي. وحين تخرج هذه المدينة ـ المرأة عن سرب المنتظرات الصامت تعتبر مارقة بكل بساطة. لا يوجد بين بنات العرب مفكرات ولا متأملات ولا فيلسوفات ولا متصوفات كثيراً كما لا توجد مدن عربية كسرت سلاسلها كسرة لا رجعة عنها وخرجت من سرب الانتظار. النساء لدينا ملتهيات بالانتظار مثل مدننا، مثل بيروت مدينة الخدمات العامة المثقلة بوعود الحب الذي لن يأتي بينما هي على أهبة الاستعداد بزينتها وخلاخيلها التي صدأت بفعل الزمن الطويل.

أصبح لدي شك أصيل بكل شيء ويقين أصيل أيضاً، وبين

الاثنين أنا حاضرة بكل بساطة. وأعرف أنك أنت حاضر أيضاً يا حازم وبيروت حاضرة معنا والإنتظار قدر كبير يجمعنا.

بدأت أصداء الجنازة تتناهى إلى مسامعي وأنا جالسة في بيتي في جونية. كان الحشد يأتي من كل أصقاع هذه العاصمة المتورمة وزوايا البلاد باتجاه ساحة الشهداء حيث مسجد محمد الأمين الذي بناه المغدور. ساعتين احتاجها موكب الجثمان الذي كان قادماً من قصر الحريري لكي يصل إلى ساحة المسجد في وسط بيروت. لقد مر، في شوارعها المكتظة، بالباكين والغاضبين وحملة الألوية والأعلام الذين كانوا يشتمون سوريا ويطلبون خروج جيشها منها ويحملونها مسؤولية القتل المباشر المتعمد. لقد رفضت عائلة الرجل أن يكون تشييعه رسمياً وتركت الشعب يتكفل بالأمر. لقد انقلبت الدنيا رأساً على عقب بلمح البصر، وبينما أصوات الإدانة تعلو كان هناك أصوات أخرى تطالب بحماية دولية خارقة أكثر الثوابت الوطنية بداهة على حين كان رئيس البلاد يصر متجاهلاً كل هذا الجنون على تأليف حكومة وحدة وطنية. أما في دمشق، فقد كان هناك قلق من نوع آخر يجمع بين الصدمة والرغبة في استيعاب ما يجري. لقد حزمت السفيرة الأمريكية أمتعتها وغادرت العاصمة المذهولة على عجل إشارة إلى غضب حكومتها وإدانتها. أما أصوات النوايا الحسنة فبدت مثل من يخط في الماء بين هذا الهرج والمرج الفالتين من عقالهما. لقد جعلني كل هذا أرتعد من الخوف حتى شعرت أني لن أصل اللاذقية إلا في كفن أنا الأخرى. لقد بدأت حياكة الكروشيه بعد الحادث مباشرة من دون توقف حتى بدا أن هناك ما يكفي منه لتكفين البلد كلها: سكانها وأحزابها وطوائفها وحتى جيشها... كروشيه كثير بثقوب كثيرة حيك على عجل لتكفين الدنيا والآخرة.

اتصل عبد السلام ناشري السوري - اللبناني ليطمئن عليّ

وليطلب مني أيضاً أن (لا تخرجي اليوم من البيت... الطرقات مقطوعة.. سنؤجل حفلة توقيع روايتك ريثما تهدأ الامور.. أنا أشم رائحة حريق هائل قادم.. خلي نفسك طويل ولا تضطربي..).

ـ أنا مرتبكة وعقلي توقف عن التفكير!!

ـ كلنا مثلك... الأمور لم تعد مثل قبل... إذا كنت قادرة على العودة إلى اللاذقية هذه الفترة، عودي.

ـ لكن حازم...

قال بحسم غاضب:

ـ مريم... حازم معسكر في (دار النهار).. لن أشرح أكثر من هذا.. انسي هذا الرجل.. أرجوك لا تتضايقي من كلمتي... إفعلي ما أقوله لك.. عودي إلى سوريا الآن وسنبقى على تواصل.

أغلقت الخط وكلمات عبد السلام في أذني بينما ما زلت أسمع أصداء الحشد الزاحف من بعيد تهدر في الأذن الاخرى.. لابد أن الرجل الآن قد ووري الثرى. كل شيء في بيروت ووري الثرى حتى قلبي. أين أنت ياحازم.. ماذا يكلفك اتصال صغير، أم أنت مشغول بحياكة الكروشيه متل الاخرين؟ أعرف أنك قاومت التهكم الخفيف الضاحك من أصدقائك الصحفيين في بداية علاقتنا (ما عرفت تعلق إلا بسورية... سورية يا حازم!!!) وأن ردك كان يحمل رائحة تاريخنا المشترك فجعلت أكثرهم تشدقاً يدفن ضحكته ويرحل. وأعرف كيف اعتذروا منك وأبدو إعجابهم التهكمي أيضاً وهم يروني على التلفزيون (المصدر الأكثر تصديقاً بالنسبة لهم) أتحدث عن أعمالي (لا والله عرفت تنقي.. من فين جبتها؟ أكيد برمت كل سوريا حتى شفت هيك واحدة؟) وأعرف أن ردك مرة أخرى كان أكثر حسماً وأنك متمسك بي بالرغم من حجر التاريخ القذر الذي يهد كتفيك والذي يوعز للآخرين أن (الاستقلال الكبير

هو من السوري وليس من أي أحد آخر). أعرف أنك ستتزوج من معسكر الأعداء القدماء بالنسبة لهم، هم الذين مازالت ذاكرتهم طرية ومنتعشة من قذارات الماضي. أنا أعرف كل هذا وأصغي إليه كما أصغي إلى معتوه هارب من (العصفورية) أو طفل صغير أو أحمق يجوب الشوارع. لا أستسيغ نكات أصدقائك الفجة ولا أحب التعالي الباطل وهذا التمييز الغريب الذي يجعلهم يصدقون أنهم «شعب الله المختار»، أنا التي لم تعرف الطائفية طريقها إلى بيتي ولا إلى روحي ولم أعرف يوماً أن هناك فرقاً بيني وبين العمال الذين كانوا يعملون في ورش والدي. هل أخبرتك يا حازم أنه كان يلزمني أحيانا بتناول الغداء معهم. كان يناديني كلما رآني قادمة إلى مكان عمله «تعالي يا مريم تناولي الطعام معنا». كنت أراه جالساً معهم على الأرض في حلقة صغيرة أمام جبالة الباطون وأكوام الحجارة وأكياس الإسمنت. كان يذهلني بتعاطيه مع عماله وحنوه عليهم. بعدما توفي دهشت من عدد العائلات التي كان يمدها بمعيشتها خفية وسراً. كان أغلبهم من عائلات عماله. هكذا عشت يا حازم وهكذا أنا.

اتصل بي. اتصل وقل لي إنك لن تقبل أن تمشي في مسيرة اتهامي التي رأيتها في عيونك وأنا أعد لك العشاء في المطبخ، وسيكون حبك أقوى من هذا الهوس المر بالتحزب والتطرف الذي قلب البلد على رؤوسنا وجعل حياكة الكروشيه أهم صناعة فيها. اتصل وقل لي إنك قادم إليّ لأنك توقفت عن الطيران في سرب التيه وأن علمك وثقافتك وتاريخك يحتم عليك أن تتطلع في أفق أبعد وترمي بصنارة صيدك في ماء أعمق وأكثر صفاءً. اتصل واجعل هذا الحب ينتصر على الثرثرات الكثيرة ولا تجعلني أتخيلك وأنت مرفوع الأكمام كموظف قديم بطربوش عثملي منشغل بحسابات شركة شبه مفلسة. إنني مذهولة يا حازم من هذه الوجوه الغاضبة

المستعرة التى تفتح أفواهها صراخاً على شاشات التلفزة. من أين أتوا بكل هذا الحقد المكبوت. حتى أعداء الرجل كانوا غاضبين ويلوحون بقبضاتهم انتقاماً، يلوحونها في وجهي أنا حتى أني كنت أشعر برذاذ الشتائم يخترق الشاشة ويصل إليّ كصفعة مدوية. لقد توفي والدي منذ خمسة عشر عاماً تماماً قبل انهيار الاتحاد السوفيتي بأشهر وتفتته إلى دويلات، وتوحد شطري اليمن والألمانيتين وغزو العراق للكويت واجتياح العسكر السوري لجبل لبنان وكتابة أول صفحة (وب) وخروج مانديلا من السجن. كان ما زال متعلقاً بأهداب الأحلام التي تنشد وحدة الأمة وإمكانية عودة الأمور إلى نصابها ولو بالخطب، ولو بالقصائد الحماسية والوقوف دقيقة صمت على أرواح الشهداء أو تحية للنشيد الوطني. لقد رأيته يبكي عدة مرات أمام جمل مؤثرة لحكام برعوا لاحقاً، بعد موته، في بيع بكارة الوطن بالجملة والمفرق. أشكر الله أنه مات ولم ير الأهوال وخيبات الأمل تنطلق في سماء الأمة مثل الألعاب النارية. أما أنت يا حازم فكل ما عرفته هو أهوال الحرب الأهلية وهذا التشبث المفرط بالأيقونات وثقافة راكمها الألم وفكرة السيادة المشوهة وحب أتى هكذا مثل الصاعقة في غفلة عن الزمن.

14

انتزعني جرس المنزل من أفكاري. كان حازم على الباب. لم يتصل كما كنت أتمنى وإنما أتى في توقيت مستحيل.

ـ كيف أتيت؟ من أي طريق؟

لم يرد ولكنه حضنني وأجهش بالبكاء وأنا في قمة الحيرة والارتباك. بعد أن جلسنا الواحد مقابل الآخر أمكنني أن أتطلع في عينيه الباكيتين المحمرتين مباشرة. كان البؤبؤ يرتجف في مكانه وكذلك يداه. هل يريد أن يقول لي شيئا؟ رغبت أن أتركه لكي يتحدث براحتة ولذت بصمت متألم ومتفهم في آن. لكنه لم يتفوه بكلمة ولم يقترب مني واكتفى بالابتسام والتطلع بي ساهماً وأنا ما زلت صامتة أتطلع إليه النظرة نفسها. ومر وقت قبل أن يمسك بأيقونة العذراء المتدلية من صدره ويقول:

ـ مريم.. أحلف بهذه الأيقونة أني أحبك أكثر من روحي.

ـ وإذا.. ما بك؟

ـ قبل أن أكمل تطلعي إليّ وأجيبيني بصدق.. هل ما زلت تريدين أن تكوني زوجتي؟

ـ ماذا يعني هذا السؤال؟

وصلت أصوات المتظاهرين وكلمات التنديد وشعارات

السيادة إلى مسامعنا وهي تخفق مارة بالقرب من المنزل فصمتنا. لقد كان كل شيء واضحاً. لكنه أكمل كلامه بعزم كمن يقتلع مسماراً قديماً من حائط:

- يعني أريدك أن تتجاهلي ما تسمعين ولا تأخذي كل شيء بشكل شخصي.. كوني معي في صفي.. ستكونين زوجتي.. معي ولي، ولن يحاسبك أحد على رأي قلته أو كلمة تفوهت بها... ستعيشين هنا وسندفن معاً في القبر نفسه... هناك في غزير... دعينا ننسى ما حدث ونكمل كما نحن.. هيا.. هيا قولي كلمة. لست أنا من اتهم.. إنه الشارع..

- وأنت؟

- يا مريم... كانت جرثومة الحرب معدية. أنا أصبت بها.. وما زلت مصاباً. كم مرة أطلب منك التطلع إلي في اليوم؟ تطلعي إلي ودققي في ملامحي.. انظري إلى عيني وتفاصيل جسمي.. تطلعي إلى روحي.. إنها هناك جرثومة الحرب عالقة فيها. لقد حاولت معالجتها بالصلاة وصور القديسين والحضور المواظب على قداديس يوم الأحد فلم أفلح. عالجتها بمحاليل السياسة المتلونة، بالصحافة.. عالجتها بكل ما يخطر وما لا يخطر على بالك.. وها أنا اليوم أداويها بالعشق لعلني أشفى. ماذا يداوي جرثومة الحرب سوى الحب؟ ماذا؟ هيا قولي. حبك أنت؟ حبك أنت يا مريم.

تركت حازم يتحدث كمن لم يفعل من قبل. كان متدفقاً ومتألماً. حدثني مرة أخرى عن الحرب. كانت ذاكرته طرية مثل قبلات الأمس، وذكريات القتال والذبح على الهوية ماثلة في كل حلم من أحلامه. لقد سلّمه الحزب في حيه كلاشنكوفاً وهو ما زال في الخامسة عشر من عمره.. كلاشنكوفاً عليه صورة لمريم العذارء وطلب منه أن يربض على نافذة المنزل ويبدأ بقنص (الأعداء). قال

إنه قتل الكثيرين.. لم يعرف هويتهم ولم يدقق في ملامحهم من البعيد. كان يربض في مكانه مختبئاً من الصباح حتى صباح اليوم التالي يطلق الرصاص من مكانه على كل من يدخل. لم يعد يذكر عدد القتلى لكنه يعرف أنه مع مرور الوقت أصبح الأمر مسلياً ومن دون أي تأنيب ضمير أو هكذا بدا الأمر له. لكن الكوابيس لاحقته ولم تتركه يوماً. كان مصاباً بمرض الحرب العضال. ربما كانت القديسة جان دارك أحد هذه الكوابيس، الله أعلم! أو ربما أتت في حلم هرب سراً من رقابة هذه الجرثومة القاتلة الفتاكة، من يدري! حدثني حتى عن جارته اليهودية المتزوجة بمسيحي لبناني منذ أربعين عاماً. قال إنها كانت ترتدي زياً رجالياً متخفياً وتأخذ سكيناً ثم تذهب إلى الأماكن التي تكثر فيها الجثث، فتقطع أصابعها لكي تسرق الخواتم الذهبية التي كانت ملوثة بالدماء والأشلاء، وهي اليوم جدة مريضة تكثر من التدخين والثرثرة في بيتها الكبير الفارغ من الأولاد الذين هاجروا والزوج المتوفي. حدثني عن رفاق حيه الذين تركوا مدارسهم وأصبحوا «زلم» عند زعماء ألبستهم الحرب الحرير وأطعمتهم بملاعق الذهب. البعض منهم أصبح نائباً في البرلمان اليوم. تحدث حازم كثيراً ثم خرج من بيتي كما يخرج أي ضيف آخر. ابتسم لي على الباب وربّت على كتفي. كنت أرتجف من حدة الواقع من رأسي حتى أخمص قدمي لكني تماسكت بشكل جعلني أشفق على نفسي. لست من النوع الهادىء مهما حصل وإنما أنا قِدر يغلي. تركته يخرج من دون أن أقوم بحركة تجاهه بعد أن توقف لحظات متردداً على الباب. تطلعت إليه وهو يستقل المصعد وكأن الدنيا قد أصبحت على طرف هاوية. التفت ورمى بقبلة صغيرة مرتبكة في الهواء قبل أن يرحل. عندما أغلقت باب البيت شعرت في الحال أن الجدران تقترب من بعضها البعض وتضغط علي..

قررت العودة إلى اللاذقية في اليوم التالي. قلت في نفسي سوف أخبر حازم بعد أن أصل. لن أستطيع البقاء هنا أكثر. اتصلت بخليل السائق السوري فوجدت خطه مقفلاً فعلمت أنه لم يأت اليوم. اتصلت على رقمه الآخر فرد علي بلكنته اللاذقانية الثقيلة:

ـ والله أنا ما جاية هاليومين. أشو أنا مجنون! بيكسرولي السيارة... بدك تدبري حالك مع شوفير لبناني يا ست مريم. والله كنت بخدمك بعيوني.. بس وين بدي إجي.. مجانين وفالتين. والله بروح قتل!

أسقط من يدي. لن أسافر مع أحد سأنتظر أياماً أخرى في بيروت وسأرى ما سيحدث.

15

كنت على يقين أن هناك ترخيصاً بالقتل من جهة ما. لم يكن هذا الترخيص ابن يومه ولكنه بدأ في وقت أبكر بكثير. لقد وضع على لائحته قادة ورجال أمن وسياسيين طاب لهم الهوى الوطني من جديد بعد أن كانوا غائبين عن الوعي لفترة طويلة. كما كان هناك مفكرون وفنانون عارضوا ورفعوا أصواتهم وأرادوا تغيير واقع الحال. لقد كانت اللائحة طويلة ومتشعبة لكن كان يمكن لعابر سبيل أن يرى هذا الخيط الوحيد الذي يجمعها؛ لقد عادت كلها إلى صوابها الوطني وقالت لا وهكذا تم اغتيالها إما وهي في حالة غياب هذا الوعي لكي تُتهم جهات أخرى بعينها بقتلها أو وهي عائدة إلى وعيها وهنا الخطر الأكبر.

هل قلت جهة ما؟ ربما هي أكثر من جهة تتضارب مصالحها وأهدافها. لكن اللعبة بسيطة جداً، بل إنها لكثرة سذاجتها تلوح شفافة في كذبها. باختصار من يضع السكين على رقبتي كل يوم لا يمكن أن يحمي طفلي، ومن يعث خرابا كل يوم في حديقتي لا يمكن أن أصدق أن الوردة التي يمد يده إليّ بها هي وردة لها رائحة حقيقية، ومن يُهَجِّرني من بيتي ويطهر عرقي ويصفّي طائفتي لا أصدق أنه يعرف كيف يرسم إشارة الصليب على صدره. هل قُتل

الرجل لأنه عارض كما أشيع بناء قواعد أميركية في البلد؟ هل قتل لأنه لم يعد يؤمن بالصداقات القديمة؟ هل قتل لأنه أخذ يلوح أكبر من البلد نفسها؟ مهما كان السبب وراء قتله، فإنهم يريدون أن تصلني الرسالة الوحيدة نفسها: اتركي كل شيء وارحلي واحتفظي إن شئت بمفتاح البيت في جيبك. يا لقصة مفتاح البيت المؤلمة هذه. مئات الآلاف من المهجرين ما زالوا يحتفظون بمفاتيح البيوت. المفاتيح الطويلة البرونزية التي لا يوجد مثيل لها اليوم. إنها مفاتيح الخانات والبيوت الحجرية السوداء ذات الارتفاع القليل. مفاتيح غرف المؤونة في المنازل والغرف التي تأوي حطب التدفئة وطعام الدواب وأسمدة أشجار البرتقال وغرف الجدات. مفاتيح الحب المتروك مثل أسرة المنازل التي غادرها أصحابها في الصباح على عجل، على أمل العودة الحتمية في المساء لأنهم ينتمون إليها والى شراشفها والأغطية، ينتمون إلى «حرامات» الصوف التي حاكتها الأمهات قطبة قطبة في ليالي الصيف والشتاء، حرامات الحب والتمريض والحنان. تتكاثر مفاتيح البيوت العربية التي تركها أصحابها، تتراكم مثل جبل معدني، مثل مقلب للحنين والتأوهات والحسرات. وأنا اليوم علي أن أنحني أمام هذا المقلب الهرمي المقدس وأضع مفتاحي المعاصر فوقه بهدوء وانكسار ثم أستوي لكي أصلي لراحة نفوس المالكين.

ازدحمت كل هذه الأفكار في رأسي وأنا أفتح عيني. كل شيء هادىء في هذا المنزل. لا صوت يتناهى إلي في هذه الساعة من الصباح الباكر، لا اتصال، لا قرع على الباب، لا شيء سوى الأفكار التي تروح وتجيء وتحمل معها توجساً جديداً وإحساساً غريباً بدأ يتنامى داخلي. لم تحضرني صورة وجه حازم كما هي العادة عندما أفتح عيني صباح كل يوم. لم أشعر ببهجة السعادة الصغيرة

تغمرني وأنا أرتب عالمي الداخلي على توقعات الحب وتوقعات العيش اللذيذة في هذه المدينة الدافئة. لقد كان هناك ضجة جديدة في الرأس وتشوش لا أعرف كيف أتخلص منه.

كانت شوارع بيروت ساكنة تغلي في مرجلها. سيارات أجرة وأخرى خاصة، وأخرى للدرك مكشوفة وقد أخرجوا بنادقهم ولبسوا الخوذات إمعاناً في الحضور الأمني. بدت الدنيا هاجعة على جمراتها من نافذة غرفة نومي بينما يلوح تمثال سيدة حريصا بعيداً وقريباً في آن. فكرت باللاذقية، قلت إن الحياة هناك تسير كما هي. الأمن فيها ليس استعراضاً وإنما يتحرك تحت الأرض مثل مقاتلي الجبال والمغاوير... عيون ساهرة جعلت البعض يتأفف منها بينما سمحت لي بأن أسير وحيدة في شوارع المدينة في منتصف الليل من دون أن يعترضني أحد. كفة الميزان حاسمة بالنسبة لي؛ لقد تعلمت درس الأمن مبكراً ولم أضعه أبداً في الكفة الأخرى من الميزان مع الديمقراطية لأن كفتها لم ولن ترجح بالنسبة لي أبداً. أنا حرة. أشعر أني سأبقى هكذا في مدينتي الصغيرة، حرة ومن دون قيد على عقلي. ليست المسيحية فريضة. لقد رأيت في المسيح متمرداً على كل الإرث اليهودي وعلى نظرياته الفاشلة في الحب. وحين قال اترك كل شيء واتبعني لم أفهم أن علي أن اتبعه هو شخصياً وإنما هذا الشغف داخلي للحقيقة. هكذا تركت نفسي أفهم علاقتي به وبالدين. علي أن أتمسك بالحب وأن أهمل الباقي. وحين أجد نفسي في أرض هجرها الحب علي أن أفك سرج ناقتي وأرحل نافضة غبار نعلي عنها. أما مفتاح البيت فإني سوف أتركه فوق المقلب المقدس بين ملايين المفاتيح التي أنهكها الحنين والصدأ.

لم يتصل حازم طوال قبل الظهر. بدأت اقلق بدافع الفضول وربما أكثر. ولم يتصل ظهراً ولا حتى بعد الظهر ولم أفعل أنا

أيضاً. وبقي الزمن رهن التوقع. أيام أخرى في بيروت بانتظار المجهول والناقة التي عقلتها أسفل المنزل بدأت تتململ وتشكو.

لم ينته النهار إلا وقرع مهول على الباب يكاد يخلعه من مكانه. كان عبد الرحمن البواب السوري. رأيته متوثباً لا يعرف كيف يتكلم وعلامات القلق الكبير على وجهه الباكي ويده اليمنى ملفوفة بالجبصين الأبيض السميك:

- شو في عبد الرحمن؟

رد وهو شبه باك:

- والله يا ست مريم ما لازم تبقي لحظة هون.

كان عبد الرجمن نائماً في غرفتة في مدخل المبنى عندما اقتحم ثلاثة شبان ملثمون غرفته وأوسعوه ضرباً حتى قبل أن يوقظوه. لم يعرف ما حدث كما قال لي، وإنما فتح عينيه على الضربات والشتائم تنهال عليه مثل زخ المطر. قال له أحدهم، بعد أن كوموه على الأرض وكسروا يده: (هالمرة ضربناك تاني مرة إذا منشوفك هون، بترجع ع سوريا في تابوت). وقبل أن يخرجوا حذره أحدهم: (إياك تخبر الشرطة.. بتكون حفرت قبرك بإيدك..).

لقد أسقط من يدي ولم أعرف كيف أرد على عبد الرحمن الباكي والواقف حاملاً يده المكسورة على الباب. طلبت منه الدخول ريثما نفكر ماذا نفعل. حازم كان أول من خطر على بالي. اتصلت به عدة مرات قبل أن أتمكن من سماع صوته الذي وصل إليّ ممزوجا بضجيج وأصوات آخرين يتحدثون بحدة ويتصايحون. قال إنه بالكاد يسمعني وأنه سيتصل خلال دقائق. حين تمكنت من سماع صوته بهدوء وصفاء أخبرته بما حدث فصمت ثم قال إن هذا أمر كان متوقعاً. قال لي اطلبي من عبد الرحمن البقاء «مش رح يصير أكتر من هيك» ، ثم أخبرني أنه سيأتي في المساء.

رفض عبد الرحمن فكرة البقاء بالمطلق. قال إنه سيغادر خلال أيام ريثما يرتب أموره وأن نعتبره مستقيلاً منذ اللحظة من عمله. سمعت نبرة التصميم في صوته. لقد شعرالرجل بخطر الموت. الأمر ليس مزحة، لقد رأى الشرر يتطاير من أعينهم وأصواتهم كانت تتوعده بحدة. (خلص ما إلي خبزه بهالبلد.. رح ارجع ع سوريا مربط ومن دون مصاري.. بس الله بيعين).

لم يكن عبد الرحمن الوحيد الذي لقي هذا الحتف فلقد أخبرني أن ابن عمه الذي يعمل في مرآب للسيارت قد بدأوا التحقيق معه. لقد وصل الدرك إليه وأخذوا جواله وحين احتج أجبروه على وضع يديه على الجدار ثم انهالوا عليه بالضرب. لقد قرر العودة هو أيضاً إلى سوريا. كيف يفعلون ذلك؟ هل يفتحون تحقيقاً عندما تقفز خادمة سيرلنكية أو فيلبينية أو إثيوبية من الشرفة لمعرفة فيما إذا كان الحادث انتحاراً أو غير ذلك!!! على عبد الرحمن وابن عمه أن يكونا أكثر حذراً من أي وقت مضى. لقد ولى عهد الرومانسية والغزل الأريحي والعنجهيات العاطفية إلى غير رجعة كما يبدو، كما لا يوجد «قرنة» رسمية في لبنان يلجأ إليها هؤلاء لكي يشكوا الاعتداء عليهم. ربما قصة وحدة الحال و«سوا ربينا» هي أكثر ألماً مما نظن. ربما هي (كليشيه) من بين كليشيهات عديدة خلقت شكل هذه المرحلة وأعطتها صفتها وجعلت فكرة القرب والأخوة تابوا لا يمكن اختراقه. العلاقة بين لبنان وسوريا تشبه قصة حب من طرف واحد. هكذا كان الأمر دائماً، ولقد طافت هذه الحقيقة على السطح في أول فرصة كما طافت معها حقائق أخرى كانت تجمع وتفرق الأخوة الأعداء.

16

لقد بدا التاريخ يميع ويستطيل أمام ناظري. دائماً كانت تؤلمني قصص الحب من طرف واحد. أرى فيها ألماً لا يطاق وغباءً أيضاً. كنت أقول ماذا يدفع امرأة أو رجل لكي يستمرا في عاطفة يعرفان أن لا رجع لها؟ هل يأملان أن يرق قلب الحبيب يوما ما؟ ماذا يدفع المرء لمثل هذا الألم؟ الحب لا يُصنع ولا يُعد له ولا يُهيأ له ولا يُركب أو يؤَّلف أو يبرمج أو يُحضر. الحب لا يكون بقوة الإقناع ولا حتى بقوة الإرغام القسري ولا حتى بقوة الإغراء. الحب عصي على كل هذا. فإن حضر فإنه يحضر من دون مقابل وعلى طبق من ذهب وإن لم يحضر فإن الله وحده فقط قادر على خلقه. لقد حركت القديسة جان دارك الحب في قلب حازم في واحدة من أحلامه الكثيرة. أرته صورة وجهي وقالت ها هي التي ستعثر عليها في عزاء والتي ستكون عزاء لك. وحين لمحني عرف أن هناك ما يجمعنا أقوى من الحب. إنه إملاء القدر الذي انصاع له بكل طاعة وانصعت أنا له بقوة العدوى.

وددت لو بدأت بكتابة روايتي اليوم بالذات عن العمال السوريين في هذه البلد. لقد شعرت بضحالة ما كتبت وأنا أتطلع في عيون عبد الرحمن الشاكية. شعرت بأنها لم تكن سرداً، لم تكن عملاً يضع الأصبع مكان الجرح النازف، لم تكن ما أريدها الآن أن

تكون. لم أكن أعرف أن الوجع الكبير لم يأت بعد وأن الحديث عن حقوق غير موجودة ومكافآت ماليه قليلة وقلة احترام إنما هي نزهة جميلة أمام ما يحدث اليوم. لقد مسحت دموع عبد الرحمن 350 صفحة بكل سهولة وكأني كنت أخط فوق صفحة الماء. لا، ليست قصة الحب من طرف واحد حديثة العهد بين البلدين. لقد رأيت فصولها تبدأ بعد استقلال لبنان ورحيل العسكر الفرنسي الأرستقراطي من ربوعه. لقد قدم العمال السوريون للعمل في الزراعة فيها، العمال المسلمون، وهكذا أوقعت أعدادهم المتدفقة الرعب في قلوب الخائفين على التوازن الطائفي. وماذا يرعب أهل هذا البلد الجميلة، بلد الحب الأزلي سوى هذا الأمر؟

حضر حازم في وقت متأخر ليلاً. لم يكن لوحده وإنما كان هناك رجل آخر برفقته. كنت قد شرعت في صلاة عفوية بيني وبين نفسي وأنا أتطلع إلى تمثال سيدة حريصا من شباك غرفة الجلوس. كانت السماء السوداء صافية والقمر المضيء مغروساً في عمقها والأضواء تقوى وتخفت متلألئة على الجبال المطلة على خليج جونية الخلاب.

مارك اسكندر، محام وناشط في حقوق الإنسان. هكذا عرفني حازم على صديقه وأنا استقبلهما على الباب. دخلا بهيبة إلى الصالون. مارك بقامته الطويلة وبنيته القوية يشبه مدرباً رياضياً ببذلة وربطة عنق في حفلة تكريم. جلس على أريكة منفصلة ملأها بسهولة بينما جلس حازم بالقرب مني وخطف يدي وأبقاها بين يديه وضغط عليها. مارك في الثلاثين من عمره «علماني مثلك» كما قال لي حازم بسخرية مبطنة. لم يع سنوات الحرب بسبب سنه الصغيرة آنذاك. ولد عام 1975 في بداية الحرب الأهلية وتركها مهاجراً في نهايتها إلى فرنسا مع عائلته ليكمل تخصصه فيها لاحقاً في القانون الدولي. لقد عاصر حرب السنتين التي أعادت

تشكيل مناطق الاختلاط الطائفي في بيروت ودخول قوات الردع العربية ثم الاجتياح الإسرائيلي واحتلاله لجنوب لبنان، ثم الاجتياح الإسرائيلي الثاني وطرد منظمة التحرير الفلسطينية واستلام الكتائب اللبنانية للسلطة ثم حرب الجبل وحرب الاخوة وحرب التحرير وحرب الإلغاء وانتفاضات كثيرة للأحزاب اللبنانية وإلغاء هذه الانتفاضات ودمار لمناطق مسيحية وأخرى مسلمة لتنتهي الحرب بدخول سوريا إلى لبنان وتوقف أصوات القذائف العاطفية. لقد عاصر مارك كل هذه الأحداث من دون مشاركة فيها أو وعي كامل لها. لكنه عاد بعد أن أنهى دراسته لكي يساهم «في تغيير البلد» كما شرح لي لاحقاً. لقد اكتمل فهمه لما حدث وهو يتابع علومه في جامعة باريس حيث وجد الفرصة ليتقرب من زعيم لبناني في المنفى اسمه ميشيل عون كان يحمل تصوراً عن لبنان مستقل وسيد، وليصبح من أهم أعوانه.

- قال مارك:

- أخبرني حازم ماذا حصل للبواب عبد الرحمن. علينا أن نتوقع أشياء كثيرة ستحصل من هذا القبيل. البارحة قتل مزارع سوري بطريقة مشبوهة طعناً بالسكين. أنا توليت أمر التحقيق بالقضية بالرغم عنهم. كانوا يحاولون تجاهلها وتصنيفها تحت عنوان «فورة دم» بسبب الجريمة التي وقعت مؤخراً لكني لم أقبل. أنا أحاول تجميع أكبر عدد من القضايا.. أتمنى ألا أعثر على الكثير مثلها ولكن كما أرى سيحدث المزيد والمزيد.

رد حازم:

- الخوف يعمل أكثر من ذلك. الخوف من الجهتين.

لقد شرح مارك واستفاض مناخ التمييز الاجتماعي الذي قال إنه أمر حقيقي في لبنان. العلاقة بين العمال السوريين وأرباب عملهم من اللبنانيين تشبه «زواج المصلحة»، فعند أول رمية ليمين

الطلاق يجد العامل نفسه «خارج البيت» في الشارع مع حقيبته من دون معيل. لقد دخل من دون تأشيرة وهو يعمل من دون ضمان وعند أول تذمر يستبدل في الحال. «لم يكن العامل السوري بحاجة لجريمة مثل هذه لكي يعامل بقسوة» قال مارك، فمنذ عام عثروا على سوري مشنوقاً داخل محله الخاص ببيع الأحذية في بر إلياس بوادي البقاع شرق لبنان، بينما أوقفوا آخرين في الشارع لكي يدققوا في هوياتهم. لقد كانت السلطة غائبة. إنهم عمال أقل قدراً من أن يصرف مجهود في التحقيق «لصالحهم». كان هناك براعة في الغاء الجغرافية وبحدة تصل أحيانا إلى حد القتل. لم أعثر في تاريخ الانسانية كلها على مثل هذه الرغبة العارمة المهولة في جسد أراد قطع أحد أعضائه بهذا الشكل. بدأ الخوف يكبر في قلبي بينما أخذت كلمة «زواج مصلحة» تتضخم في عقلي وتشلني وتطغى على كل شيء.

شيعة، سنة، موارنة، أرمن، أورثوذكس، دروز، فلسطينيون، مخميات، سوريا، أميركا، إسرائيل... كلمات سدت الأفق بإحكام وبات التطلع خارج أسوارها ضرباً من المستحيل. واليوم هناك جريمة يريدون معرفة من وراءها. بالقطع لن يعثر الباحثون على فيلة وزرافات في شبكات صيدهم.

ودعنا مارك كزوج وزوجة مضى على زواجهما دهر. لقد قرر حازم أن يبقى بدلاً من أن يذهب مع صديقه. قال إنه لن يتركني لوحدي ليس لأنه خائف من شيء ولكن «هكذا أفضل.. سأبقى ساعة وأنزل». في إحدى المرات، أخبرت حازم بأني قادمة إلى بيروت فعثرت عليه ينتظرني في سيارته على الحدود. قال إنه لم يستطع أن يصبر ساعة أخرى. أخذ حقائبي من سيارة خليل وأغلق باب سيارته علينا وانطلقنا. هي دائماً ساعة أخرى للبقاء أو الانتظار. ساعة أخرى للحب وللعمل وللحديث. ساعة أخرى

للحرب والقتال ولوقف إطلاق النار أيضاً. ساعة أخرى تزيح هذا الكون من مكانه مرات وترجعه. ساعة أخرى أي ستون دقيقة أي ثلاثة آلاف وستمئة ثانية تدور الدنيا فيها على أعقابها بقدر عدد الثواني.

ساعة حازم طويلة تشبه دهراً. كان جالساً بالقرب مني وقد أراح رأسه على ظهر الأريكة وباعد بين ساقية وكأنه محارب أنهى جولة قتال للتو. أغمض عينيه وأخذ يتحدث وأنا أصغي:

«كانت بيروت شاغلة الدنيا في بداية السبعينات. كنت لم أزل يافعا والحرب لم تقرع طبولها بعد، لكن طنينها الخافت كان مسموعاً مع ذلك ويهيئ لما هو قادم. كنت تعثرين على كل شيء في بيروت... الحب، الكتب، الأدب، الفن والفنانين، الجمال، الأناقة والشياكة. كنت تعثرين على العلاقات المنفلتة من ضوابطها وعلى الأديرة الكثيرة المنتشرة في ربوعها، تعثرين على المارقين والثوار والكارهين لأنظمتهم والمواظبين على التنظير في مقاهي الرصيف، تعثرين على الزعران والأوادم، على البلطجية بربطات عنق والسياسيين والباحثين عن الحقيقة. حتى صحن اللبنة والكبة النية كان يعتبر من أهم معالم المدينة التراثية. كانوا يأتون إلينا من كل مكان لكي يتناولوه مع كأس عرق مختمر في المقاهي الصيفية المنتشرة بين ربوع الجبال. كان في بيروت كل شيء. دعة العيش وطيبها. كانت أجرة الراكب من بيروت إلى دمشق خمس ليرات لبنانية أو سورية إذا كانت من دمشق إلى بيروت. أما رسم الخروج من سوريا إلى لبنان فكان بـ 11 ليرة أو أكثر بقليل، بينما يصل سعر تنكة البنزين إلى 7 ليرات. كانت الدنيا بخير.

حين اندلعت الحرب انفلقت المدينة إلى نصفين. كان المشهد من غاليري سمعان عبر المتحف أو الشياح مهولاً. الأبنية كانت

نصف منهارة أو امتلأت بثقوب رصاص القناصة والصواريخ التي لم يكن يعرف من أين تأتي أو تنطلق. كنا نحن أيضاً ممتلئين بالثقوب. اليوم نحن نعيش فترة ما بعد الصدمة. قسم كبير منا ما زال حيّاً بفضل الأدوية المهدئة التي كانت الحل الوحيد أمام وباء الخوف والاكتئاب والإحباط الذي اجتاح الروح اللبنانية.

أرجوك يا مريم... لا تلقي بالاً لمثل هذه الحوادث اليوم.. اعتبريها فشة خلق.. فورة دم.. اعتبريها ما شئت ولكن لا تبعديها أبداً عن سياقها. اعطيني يدك وتطلعي بي. لا تجعلي هذا الحب يدوخ في محارق الأيام القادمة لأن الآتي لربما أعظم. قاومي مشاعرك. قاومي عواطفك وإذا تطلب الأمر اجتازيها مثل سباق الحواجز.. اقفزي فوقها ولا تعيريها أهمية وتقدمي إلى الأمام. لا تضعيني في كفة ميزان مع عواطفك الوطنية. نحن شيء آخر».

نحن شيء آخر!!!! وقعت كلمة حازم كالصاعقة عليَّ. يا ربي، كم نحن مختلفان. كم أتمنى أن أفهم وأتفهم دوافعه. لقد جبلته الحرب وأعادت تشكيله على صورتها ومثالها. أما أنا فذاكرتي الصغيرة ليس فيها سوى مشهد لطائرة حربية إسرائيلية قصفت خزانات النفط على ساحل اللاذقية وفرّت عام 71. لم أعش حرباً أهلية في سوريا. كان عدونا دائماً معروفاً وواضحاً ولم يكن هناك في المحيط الذي نشأت فيه أحد يسأل آخر ما هي طائفتك.

- أريد أن أفهم بكل قوتي، كل حرف تقوله.. ليس بدافع الحب وإنما بسبب رغبتي في الفهم.

- لا تتعبي في الفهم أو التحليل (يقولها بتوسل) خذي كلامي كما هو.. إنه الحقيقة.. ارتاحي من التفكير وكوني معي. هذا كل ما عليك فعله.. ولا تعودي إلى «هناك» ولنتزوج في أسرع وقت ممكن. دعينا نحدد موعدنا مع الخوري الذي سوف يعقد قراننا

ونحصل على ورقة «تفسيح الزواج».. سوف أهتم بكل هذا من يوم غد. ابقي هنا ولا تعودي إلى سوريا. أرجوك.

تمتمت من دون تفكير: حاضر.

17

بدأت انتبه إلى أن تعدد الأحزاب والأحلاف والإنتماءات في لبنان ربما ليس لأنه الديمقراطية الوحيدة في الشرق العربي، وإنما لأن لكل زعيم فيه أغنيته الخاصة عن الحب. إنها ليست تنوعاً عاطفياً غنياً وإنما اختلافاً مؤلماً يتحرك على حد السكين في أغلب الأوقات. فتحت هذا الغطاء الأخضر الحنون، وتحت هذه السماء الزرقاء الصافية، وتحت هذا البحر البديع الفستقي اللون تحتضر الأسماك الملونة في مخابئها ويذوب اللؤلؤ في قواقعه وتندثر الحياة ويجد التناقض لنفسه مرتعاً.

يعتقدون أن «بوسطة» قديمة هي من أشعل الحرب في هذه البلد. لكن قراءة التاريخ تتحدث عن تفاصيل أكثر وجعاً وجدة. لم تكن الطائفة تنفصل عن واقعها الطبقي. إن الاختلاف كان بدقة صراعاً محتدماً صامتاً بين الغني والفقير، بين اليمين واليسار، وبين قوى أرادت أن تُبقي على الأوضاع محفوظة في ملحها القديم وأخرى تريد أن تقلب الدنيا على قفاها. لكننا مع الوقت حين نذكر حرب لبنان فإننا نقصد طائفيته القاتلة. لقد تعلمنا كيف نختزل الألم دائماً وننشطح في فهمه.

قال لي حازم إذا أردت أن تعرفي ماذا يحدث في هذه البلد فكري دائماً بالتوزان السني ـ الماروني وما تعرض له من خلل

وما طرأ على خطوط تماسه. لم يكن يتخيل أن الحرب قد تقع لأسباب أخرى غير هذا الخلل في توازن بني عليه الميثاق الوطني للبنان. لقد كان عقله هو الآخر يفكر بالطريقة نفسها، الطريقة التي أشعلت الدنيا وهدت البلد. هناك خلل من نوع آخر لم يكن يعيه لأنه لم يكن أصلاً في الفريق الذي يرى في التضخم المالي، في بداية السبعينات مثلاً، سبباً في هذه الهوة الاجتماعية الاقتصادية الأكثر عنفاً وحدة والتي مهدت بقوة للحرب الطاحنة. بل لم يكن يرى هذا القديس الصغير أن هذه الهوة، وبحسب انتشارها في مناطق البلد وتوزعها فيه، إنما خلقت بعداً طائفياً لهذه القنبلة التي أطاحت بالجميع وأشعلت النيران. من يعطي أهمية للصراع الطبقي أو للأزمات الاقتصادية ويعتبرها جذوة الاشتعال الطائفي؟ أين أنت يا جان دارك، المرأة الوحيدة التي أراها في حقبتي مع حازم؟ المرأة الوحيدة التي رسمت قدري لهذه الأيام وللأيام القادمة. لم تأت في حلمي وإنما في حلم رجل لبناني أصبح خطيبي بقدرة قادر ثم تواريت وتركتنا في أمواج التيه نتصارع أنا وهو على استيحاء. أشبه حياتي بلوحة ملونة كل ما فيها حي ونابض بينما هناك خيالات رمادية بعيدة لنساء من دون ملامح، نساء يقفن مقيدات وعاجزات غير قادرات على ترك أثر في هذه اللوحة أو جعل نبضها أقوى. لقد تعبت منهن ومن تواجدهن، قصيرات القامة، طويلات، بدينات، نحيلات يرتدين الثياب الضيقة أو الفضفاضة التي تفقدهن ملامحهن، والقبعات المسطحة التي تضغط على عقولهن فتجعلهن يبدون أكثر تواريأ وشحوباً، أو حتى مفرطات الأناقة مزهوات بجمالهن المعتنى به للتو ونظراتهن لا تتطلع إلى أي مكان هائمة ضائعة. جان دارك ليست مثلهن. لقد كان شعرها قصيراً، ثائرة ولاحقاً قديسة أتت من الماضي لكي تترك بصمتها على لوحة حياتي الملونة، مسلحة بقوسها وسهامها التي تخترق الأرواح بدقة فائقة.

في بيروت يمكن للمرء أن يحلم بسهولة، أن يتحرك وفق حلمه وأن يعبر عنه بكل الأسلحة المتاحة.

ما إن انتهى العهد الشهابي حتى أخذت تناقضات البلد تظهر على السطح. كانت المقاومة الفلسطينية قد أخذت مكانها لا بين مقاعد المتفرجين وإنما على المسرح بالذات. لقد كان الجو مهيئًا تماماً لكي تتحرك باستقلال تام بعيداً عن الدولة أو حتى بإشرافها. وخلال فترة صغيرة من الزمن تحولت إلى فرد مكرس في العائلة المتشرذمة التي كان أفرادها ينتمون إلى فرق متباينة، منها الرافضة ومنها المغبونة ومنها الطوائف المهملة والأحزاب ذات البعد العقائدي والعسكري المسلح وتلك التي كانت لفترة ممنوعة ثم ظهرت للعلن. من كان يجمعها؟ وماذا كان يجمعها؟ الثورة المسلحة؟ فكرة الدولة؟ لقد كان الكل قابضاً على سلاحه يريد أن يحمي حق عقيدته في الوجود. أما الحكم فقد اقتصر دوره على تقريب وجهات النظر بين المسلحين وهكذا وفي مثل هذا الجو المحتقن، فإن بوسطة قديمة صنعت في النصف الثاني من القرن الماضي يمكن أن تشعل فتيل حرب طاحنة.

لقد تحدث حازم مراراً وفي أكثر لحظاتنا حميمية عن هذا النزوح القسري الطائفي بين شقي بيروت الغربية والشرقية الذي يفصل بينهما «خط الشام الحديدي القديم». لقد أُفرغ جبل لبنان والمنطقة الشرقية من المسلمين والمسيحيين ذوي الميول اليسارية كما أفرغت قرى بحالها من سكانها المسيحيين. قال لي إن هذا لم يكن مصادفة. لقد وهنت بنية البلد القومية وانحل تماسكه الوطني وأخذت تتهيأ للحرب بكل بساطة. لقد وقف مسيحيون عقائديون لا طائفيون في وجه مسيحيين آخرين متدينين وينتمون إلى أحزاب طائفية لا لبس فيها، بينما نادراً ما نعثر على مسلمين قد حملوا السلاح في وجه أحزاب رافضة لبنانية أو فلسطينية.

كان حازم مجبولاً بذكرياته وماضيه القريب الحي. قبلات كثيرة تقاطعت مع هواجسه التي كان يتحدث عنها همساً. لمسات كانت ترسم فوق جسدي خطوط التماس الكثيرة التي انتشرت في بيروت وحولها وفي عمق شوارعها وزواريبها. دموع ذرفت لا من شدة الحب وإنما من وطأة الذكرى المؤلمة التي اشتعلت في عز الالتحام الرومانسي. كلام كثير متشرذم عن الثورة والدين والاقتتال اختلطت مع الغزل وعبارات الحب القليلة الموحية. سأتزوج الحرب كلها في رجل.

مر أسبوع على مقتل الحريري وبدأت البلد تتحدث عن «انتفاضة الاستقلال». إنهم يريدون خروجاً فورياً للجيش السوري من لبنان. أما أنا التي اتهيأ للإقامة القريبة الدائمة فيه فالله وحده يعلم بما أشعر.

حين فتحت عيني في صباح اليوم التالي كنت أفكر بمارك اسكندر. رأيت التحضير لأمر قادم في عينيه. ترى بما هو مكلف غير الدفاع عن العمال والشغيلة وحقوق الإنسان المغبون في لبنان؟ لربما كان يملك قدرة أكثر من حازم على فهم ما يحدث. إنه أكثر شباباً ودراسته في الخارج سمحت له أن يرى كامل المشهد من على بعد. لابد أنه انتبه إلى أن الحرب اشتعلت منطلقة من حزام البؤس والفقر والتباين الطبقي المهول، حزام النازحين من القرى إلى المدن الذي يلف بيروت من جهاتها الأربعة وصولاً إلى المخيمات الفلسطينية. لابد أنه انتبه إلى أن حملة السلاح لم يكونوا كلهم ممن ثاروا لانهيار العدالة الاجتماعية في هذا البلد وإنما أيضاً بقصد الابتزاز والاعتداء على الذين لا حول ولا قوة لهم. سلاح كثير انتشر في بيروت، سلاح كثير وأحقاد كثيرة وحسابات متشعبة وولاءات لأطراف ظهرت بغرابة في منتصف الحلبة. حتى الثوار لم يكونوا متفقين على صيغة واحدة للحب. فكان بينهم

العقائدي والمتدين والمعتدل. لم يكن هناك أحد في لبنان لا لون له أو تنظيم يأويه وإلا فإنه يضيع مصدر حمايته ومعيشته.

فكرت أني نسيت أن أهدي نسخة من روايتي إلى مارك.

اتصل بي عبد السلام بعد أن انهيت مكالمة سريعة مع والدتي. قال إنه عندما رأى هاتفي الخلوي السوري خارج التغطية أدرك أني ما زلت في بيروت. عرف مني أنه لا يوجد سائق سوري يرغب في الحضور هذه الأيام ولا حتى خليل السائق اللاذقاني الذي أتقن عقد الصفقات على جانبي الحدود إما بالشتيمة أو بالمديح. أخبرني أن الأمر ليس مزحة «سأرسلك بسيارتي إن اردت وانسي أمر توقيع الكتاب في الوقت الحاضر... انسي كل شيء». لكنه طلب أن يراني «فهناك أمور يجب أن نتحدث بها معاً قبل أن ترحلي».

حضرت إلى مكتب عبد السلام ظهراً وحضرت معي جان دارك كظلي. أصبحت حاجتي لها من اليوم فصاعداً أمراً حيوياً. أليست هي من قرر كل شيء؟ هذه المحاربة، الملحدة والعذراء. إنها شبيهتي. فلتتحمل البقاء معي ولتتحمل تنقلاتي وخوفي وترددي واشتباكي وقراراتي. ستكون أيقونتي اللامرئية في بلد تمتلئ زواياه بتماثيل القديسين وأنصاف الآلهة وصور الزعماء والمرشحين. لماذا يملك السياسي اللبناني هذا الميل لكي يلعب دور الزعيم في مسرحية «كلن ع البلد»؟ لماذا تفتنه هذه الشخصية من بين كل الشخصيات الأخرى؛ شخصية رجل له أزلام يفتحون له أبواب السيارات ويهيئون دخوله إلى قاعات الاجتماع والمؤتمرات الصحفية ويسلمونه مقص السيجار قبل توليعه ويستلمون منه النظارات الشمسية والمعطف الغالي الثمن حين يهم بالدخول إلى مكان ما. لماذا هو معجب بشخصية تدمن سهر الصالونات والحديث في السياسة والتنظير والمزمزة الخفيفة أو الثقيلة مع كؤوس الويسكي أو الكونياك المعتق بينما الزوجة الشديدة الأناقة

التي تملح كلامها بالفرنسية منشغلة بالحديث عن رحلات التسوق في أوروبا في زاوية فخمة من المكان مع نساء يشبهنها؟؟ لقد شبه لي أني رأيت زعيماً صغيراً يومئ برأسه من عباءة حازم. في إحدى المرات أخذني معه لزيارة صديق قال إنه رجل سياسي مهم. ما إن دخلنا إلى فيلته الواقعة في منطقة (أدما) المطلة على خليج جونية حتى شممت رائحة الزعماء بالقمصان الفاخرة من دون ربطة عنق والزوجات اللواتي أسرفن في أناقتهن لدرجة يستعصي على المرء لو أراد أحد أن يصورهن معرفة إلى أي مجتمع ينتمين. بعد أن انتهى التعارف وكلمات الترحيب الفرنسية والصيحات الناعمة والشهقات اللطيفة تركني حازم أجلس مع السيدات بينما ذهب هو إلى ركن «الزعماء» وهكذا بدأت السهرة. كانت تطرف عيني عليه كل وهلة فأراه مستمتعاً بسيجار رفيع طويل وقد انهمك في حديث سياسي يتقاطع مع نكات جنسية متوارية وضحكات مدوية وسعادة أسست لها البحبوحة والوعود. ليست الغربة عن هذا المكان ما شعرت به ولكنه التيه. في طريق عودتنا قال لي إنه رآني عدة مرات صامتة لا أشارك في الحديث بل أكثر من هذا «شفتك صافنة كل الوقت... حبيبتي من يوم ورايح لازم تتعودي على هيك أجواء.. أنا شغلي كلو هيك» ثم قبل يدي وهو يبتسم وأضاف بمكر «لسى ما حبيتيني مزبوط...».

استقبلني عبد السلام أنا وجان دارك اللامرئية وأجلسنا على كرسي مقابل مكتبه. لقد احتضنني كأب يرى ابنته بعد سفر طويل وقال بلهجته الخاصة «الحمد لله على السلامة» ثم تطلع إلى يدي اليمنى فرأى خاتم حازم الباهت يلف أصبعي فسكت لثوان ثم أطلق ضحكة خفيفة فهمت إلى ما ترمي في الحال.

كان يجلس على الكرسي المقابل رجل لم أره مرة في حياتي ولكني سمعت عنه كثيراً وقرأت له أكثر. أخيراً أرى هذا الذي

طالما تساءلت وأنا أقرأ أبحاثه ومقالاته مما هو مصنوع عقله، ومن أية زاوية يرى هذه الدنيا المارقة. كنت أتخيله أطول قامة وأقوى بنية ولكني ألفته معتدل الحجم ذا حضور طاغ زادت منه نظرة عينه التي لا يهرب منها شيء وشعره الرمادي الخفيف. عرفني عليه عبد السلام قائلا «دكتور جواد حداد» أستاذ علوم سياسية في جامعة ليون في فرنسا، صديقي القديم وحبيب قلبي». ثم التفت إليه وقال «ابنتي مريم.. الكاتبة الروائية التي أهديتك روايتها منذ قليل». ابتسم كل منا للآخر مع هزة رأس خفيفة.

18

جواد حداد، فلسطيني من عرب 48 الذين أتوا إلى لبنان. ولد عام 1954 في مخيم مار الياس بعد تأسيسه بعامين، وهو أصغر مخيم للاجئين الفلسطينيين لجأ إليه من نزحوا من الجليل في شمال فلسطين. غادر جواد لبنان إلى فرنسا للدراسة بعد انتهاء حرب السنتين (75 ـ 76) وبقي هناك إلى هذا اليوم. لمع اسمه كمفكر بعيد عن الوطن لكنه ما زال متشرباً بسنوات اللجوء وهموم الأرض ومفتاح البيت الطويل الذي يرقد في جيبه. لقد خاض حروباً كثيرة في الغربة شنتها عليه مجموعات صهيونية أرادت أن تبعده عن منصبه الأكاديمي لكنها فشلت أمام إقدامه ولمعانه وتفوقه فتمسكت به جامعته بالرغم من كل شيء. لقد نجا منذ سنوات أيضاً من محاولة اغتيال بينما كان يركن سيارته الصغيرة أمام منزله في إحدى ضواحي ليون، لكنها خلفته من دون ساق. هو اليوم يكتب مقالاته وأبحاثه وينشرها في بعض الصحف العربية التقدمية ويدعى للمؤتمرات القومية وتلك التي تناهض التطبيع مع الكيان الصهيوني. إنه الرجل الذي لا يمكن أن تأتي جان دارك في أحلامه لأنه لا يؤمن بتوجيهاتها أصلاً ولم تعلمه الحياة في المخيم أن عليه أن يترك تقرير مصيره للقديسين بينما يده كانت تقبض على سلاح الحراسة الليلية.

لم يستطع عبد السلام أن يمسك نفسه من سؤالي أمام جواد:

- «لسى الخاتم في أصبعك؟».

- لسى.

- «ما حل تقلعيه.. لتكوني عن جد بتحبيه؟».

وأجبت بعدم قناعة واضحة بينما عيني جواد تنتظر جوابي بتوق أمكنني الإحساس به بسهولة:

- ارتبطت به لأني احببته.. ما يحدث لاحقاً يتوقف على مواقفه من أشياء أنت تعرفها.

يلتفت إلى جواد ويقول:

- لا أشعر يا مريم بأي حرج من الحديث أمام جواد لأنه منا وفينا.. حازم ليس لك أبداً. فكري أكثر. أنا لا أكن له ضغينة. انسي الخلاف المبدأي الذي بيننا. هذا رجل يميل لزعماء تعاملوا مع أعداء هذا البلد. مجرد أن يفعل ذلك، يعني أن هناك خللاً ما لديه. ربما هو متيم بك. ربما جارت الحرب على روحه فأزهقتها. من يدري؟ لكنك لست هي قطعاً من يجب أن تشاركه حياته.

كان جواد يصغي بحياء وكأنه زج في صلب موضوع لا علاقة له به، لكن حياءه لم يستطع أن يمنعه من الإصغاء المنتبه المهتم. فنّدَ عبد السلام الحجة تلو الأخرى مستعملاً كلتا يديه من أجل الإقناع بينما كان يحرك سيجاره بين أصابعه بشيء من نفاذ الصبر. كنت أفهم تماماً كل كلمة يقولها.

كانت الدنيا بخير عندما التقيت حازم وكانت شكليات الأمور جيدة وواعدة ولقد سمح لي بعض النضج أن أقدر أن الحب ينمو مثل الوليد الصغير ويكبر إذا كان هناك من يرعاه جيداً. لقد بدونا أنا وهو كوالدين جيدين له وكانت عرابته القديسة جان دارك. من يملك بعد هذا أن يدير رأسه باتجاه أي أفق آخر؟

تبادلنا أنا وجواد أرقام التلفونات مع كلمات مجاملة خجولة ونظرات هاربة. قال إنه سيبقى حتى آخر الشهر في بيروت ومن ثم يعود إلى جامعته. وعدني أن يقرأ الرواية بكل اهتمام. حين قام ليودعنا أنا وعبد السلام شد على يدي بكل قوته فشعرت بإيقاع روحه الراسخة وثقته بنفسه. وهكذا فضحت قبضة سلامه المستور وجعلت الجو كله يتسمم بهذا الشيء الذي لا يمكن وصفه ولن أعرف كنهه أبداً.

تركت مكتب عبد السلام بعد أن أخذ وعداً قاطعاً مني بالعودة في أقرب وقت إلى اللاذقية. أصبح الأمر أكثر صعوبة ليس فقط بسبب عدم وجود سائقين مستعدين للمخاطرة بحياتهم وسياراتهم وإنما لأن جواد في بيروت ولأن حازم يحضر ورقة تفسيخ زواجنا مع الكاهن المسؤول في منطقته.

عدت إلى البيت بسيارة (سرفيس) قديمة. كانت هناك أيقونة متدلية أمام السائق العجوز تشبه تلك التي يضعها حازم على صدره. أيقونات كثيرة في هذه البلد، صلبان، شعارات مكتوبة بالأسود المطبوع على الجدران في الشوارع، علامات تجارية، ماركات، تماثيل وصور في كل مكان، كلها تمر أمام ناظري من وراء زجاج السيارة التي تتحرك كبوسطات منتصف القرن الماضي على الطرق الصوانية الجبلية. كنت أهتز يميناً وشمالاً بشكل خفيف وأميل مع حركة السيارة وأنا أفكر شاردة بجواد بينما كانت صورة حازم تبهت وتنوص وتتلاشى ثم تقوى لتعود فتبهت مثل أضواء شجرة الميلاد التي لا تستقر على حال. تُرى ما هو الحب؟ من أي قماش مصنوع؟ أمن الكتان؟ أمن الحرير الشفاف أم من المخمل الفخم الرزين؟ ما هي قماشة حبي لحازم؟ أين عثرت عليها؟ وهل تكفي ثوباً لي وله طول العمر؟ ولمَ علي أن أعتمد على دعوات القديسين لكي تستمر حياتي من دون منغصات؟ كنت أحيا دائماً كمغاوير الجبال متيقظة الروح والعقل فاتحة بوابات وجداني

على كل الدنيا. ماذا حصل لكي أغلقهما عليّ أنا وحازم وأصنع لنا قبراً احتفالياً في منطقة غزير الجميلة المطلة على البحر؟

وبدأت أدور الخاتم في أصبعي وكلمات عبد السلام تصرع أذني. ما العمل الآن؟ حاولت أن أبعد كل هذه الأفكار المزدحمة فلم أفلح إلى أن أيقظتني مكالمة حازم:

- وينك؟

- في طريق عودتي إلى البيت.. كنت في مكتب عبد السلام.

- لن نستطيع أن نلتقي هذا المساء يا حبيبتي.. لدي اجتماعات حتى منتصف الليل. أنت تفهمين حساسية هذه المرحلة. نامي بكير. لا تذهبي إلى أي مكان. ساتصل بك في الصباح.

- وورقة (تفسيح الزواج) ؟.. حازم.... ألو حازم... ألو... حازم

قضيت فترة المساء صامته أقلب الدنيا حولي بقلق مستطير. راح عقلي إلى اللاذقية عدة مرات وعاد مثقلاً بحمولة عاطفية كبيرة. المناخ يشبه كرة ماء مطاطية يتزايد وزنها فوق كاهلي شيئاً فشيئاً. بيروت تنتفض تريد استقلالها وأنا أنتفض مثلها وأكثر. هي مذبوحة بالاغتصابات التاريخية المتتالية وغزوات الحب المفتون وأنا مذبوحة بـ «غلطة الشاطر» التي تساوي ألفاً.

نمت على هواجسي وصحيت على تلفون جواد. خرج صوتي جديداً وأنا ما زلت في سرير النوم الدافىء. سألني إن كنت مريضة فقلت إني صحوت للتو ولم أتكلم بعد مع أحد. دخل في صلب الموضوع في الحال وقال إنه سهر على روايتي وأنهاها فقط منذ دقائق قليلة:

- انتظرت حتى طلع الصباح لأتصل بك.

- عن جد؟ بهذه السرعة؟... ألف شكر حقاً!!

ـ طبعاً. الرواية تستحق القراءة. من أول سطر عرفت أنك مختلفة. مجرد فكرتي بموضوع العمال السوريين ولم تفكري في مواضيع تتعلق بجسدك أو الجنس أو علاقتك بالرجل.. لفت نظري. اليوم رفوفنا تمتلىء بهذه الكتابات.. مشاكل البلد أصبحت من اختصاص أهل السياسة وليس المثقفين أو الأدباء. لقد دخلنا عصر الترويج للجنس والتطبيع الثقافي مع من يحملون السكاكين خلف ظهورهم والابتسامات الصفراء على وجوههم.... سئمت من الكاتبات الغارقات في مشاكلهن مع الرجل أو أجسادهن.

تركت جواد يتحدث بلا توقف لمدة نصف ساعة من دون أن أقول حرفاً. كنت أصغي إلى أهم سمفونية في حياتي وأنا مغمضة العينين منتشية المرة تلو الأخرى إلى أن سالني فجأة:

ـ أنت معي؟ نمت؟

ـ لا أنا أصغي بكل اهتمام.

ـ ما رأيك لو نكمل حديثنا على فنجان قهوة. هل لديك مانع؟

أجبت بتردد...

ـ لا أكيد لا...

اتصلت بحازم لأساله لكن هاتفه الخليوي كان مغلقاً. عرفت أنه مشغول في اجتماعاته. أرسلت له رسالة صغيرة أخبره عن لقائي المرتقب مع جواد. قلت في نفسي سيجدها عندما يفتح خطه وانتظرت قبل الظهر كله وأنا خائفة. لم يتصل ولم يرد. في الرابعة بعد الظهر اتصل وقال إنه رأى رسالتي «لاباس حبيبتي.. مواعيد عملك ليس لي فيها... أنا أيضاً سأكون مشغولاً للباقي من النهار.. سأتصل بك ليلاً..».

أوف.... تنفست الصعداء.

التقيت أنا وجواد في واحدة من مقاهي الرصيف في شارع

الحمرا. كان ينتظرني بشيء من القلق والانشراح معاً. شد علي يدي مرة ثانية بقبضته القوية وجلس بحماس وقال وهو يبتسم:

- «أهلين مريم... الكلام هون أحسن.. ع التلفون ما منقدر نشوف انفعالات وجه الطرف التاني».

مرة ثانية تركت جواد لكي يتحدث كما يريد وأنا أصغي إلى إيقاع الصوت العميق مثل بحر ممتلىء بأسماك الزينة. لم يدر الحديث عن روايتي وإنما أخذ فجأة ومن دون مقدمات منحى آخر. لقد أراد أن يتحدث عن نفسه:

سأحكي لك قصتي يا مريم. أنا ابن المنظمات الفلسطينية في لبنان. ولدت في مخيم وكبرت فيه ومنه سافرت مباشرة للدراسة في فرنسا. لم يكن لدي إلا الوثيقة لكن صديقاً أمكن له أن يستخرج لي جواز سفر لبنانياً وهكذا سافرت. لقد كانت مخيماتنا تتحدى أسلوب الحياة في لبنان، لبنان البرجوازي الذي كان يتطلع إلينا كمن باع وطنه وأتى متطفلاً مخرباً إليه. حين تركت البلد كانت حرب السنتين قد انتهت بينما وجدت إسرائيل طريقة لكي تمد ذراعها طويلاً في عمق البلد. قالت إننا نهدد أمنها وإننا سنجر لبنان إلى حرب معها إذا لم يقم أحد ما بإخماد أصواتنا. مات والدي في المخيم وأنا أدرس بعيداً عنهم. صك البيت في الجليل ما زال ممهوراً بدمهم والمفتاح.. آه من هذا المفتاح ما زال في علبة أمي الصغيرة التي تجمع فيها أشياءها. لقد كانت النظرة اللبنانية إلينا أكثر من قدرتي على الاحتمال فهججت. كنت أسمع الشماته وكلمات الذل تسقط على روحي مثل الرصاص «باعوا وطنهم»، «مخربين»، «سيخربون بلدنا متل ما خربو بلدهم» «قتلة الملك عبدلله» وكلمات أخرى ما زالت محفورة في هذا العقل. ماذا يعلم هؤلاء عن الخطر الصهيوني؟ ماذا يعلمون عن درب آلامنا؟ كل يوم كنت عندما أغمض عيني في ظلام الخيمة وأرجع عبر الثقوب الكثيرة فيها إلى فلسطين.. أسافر إلى هناك حيث تسكن روحي

التي لم ترها مرة واحدة. أتذكر أني في بلد يهينني ثم يطلب مني كل طالع شمس أن أتذكر جميله علي تماماً كما يفعلون مع العمال السوريين الذين كتبت عنهم. كنت أسمع كلمة لاجىء كل يوم في أذني. من قال إني اخترت أن أكون لاجئاً. من قال إن بياراتنا كذبة وإننا حرثناها فقط في خيالنا؟ لقد مات الآلاف قرب السياج من رصاص حرس الحدود الإسرائيلي وهم يحاولون أن يتنسموا هواء فلسطين أو الاقتراب من أرضها. حتى لهجتي الفلسطينية الجميلة أحاول أن أخفيها وأنا في هذا البلد. سنوات من الجنون الفالت من عقاله. أحزاب ومنظمات وجهات وأفراد وحكومات كانت تربت على أكتافنا وتعدنا بالتحرير كل يوم. كنا ننتظر الفرج في كل مرة ثم ننام آخر الليل على خيباتنا. كنا نحارب بالراديو.. ربما كان هذا أمضى سلاح بين أيدينا. الأنظمة العربية كان كل منها في واد.. أسلحة كثيرة، بعثيون، ناصريون، قوميون كل واحد منهم كان يوقظنا كل صباح على خطبه لننام في المساء مرة أخرى على الخيبات والأحلام الموردة. بعد حرب 67 والهزيمة المهولة بلع العرب ألسنتهم إلى الأبد واستراحوا وأراحونا. بقي العدو يطلق علينا اسم مخربين، اليوم نحن إرهابيون أما بالنسبة للبنانيين فنحن غرباء ولاجئون. حتى المكتب الثاني دخل إلى المخيمات.. استدخلوه وأصبحت فروعه من المخافر ملء المكان. كان الهم هو مراضاة إسرائيل فلبنان ليس دولة مواجهة وهذا يعني أن تنصب لنا الشرك ليل نهار ونقمع في أسرتنا ونحن نيام. دخل حتى الكومندوس الإسرائيلي إلى لبنان بمباركة اليمينيين فيه وقتلت منا بؤبؤ العين، قتلت رموزنا وأبطالنا، فجرت رؤوسهم المهمومة بمفاتيح البيوت والحنين. كانت المخيمات تمتلىء بالبنادق.. حتى أكياس الطحين والرز في مخازن الأونروا كانت محشوة بالقنابل والرصاص. كنا مجموعة من اليائسين والعشاق والحالمين وهكذا تشرذمنا إذ لم نكن جميعاً قلباً واحداً. لقد فتح البعض دكاكين سمسرة بينما فتح آخرون قلوبهم حتى آخر قطرة دم. أنا لا أمسح

على رأس كل فلسطيني وأقول له مغفورة لك خطاياك. لقد كنت أرى الجميع وأعرف من كان يريد تحرير فلسطين حقا من ذاك الذي أصبح بارعا في لف خصر الأنظمة العربية والرقص حتى الصباح. كنت أبحث عن رجل لا يكون نسخة عن ياسر عرفات.. لم أعد أميل للرجل.. قتلوه أم لم يقتلوه.. القضية أنهم يقتلون كل فلسطين. فلسطين أكبر منه ومن قضيته. أردت زعيماً لا يفتح دكانا أو يتأمل نجوميته مبهوراً بينما نحن نداس تحت أحذية الدول الصديقة وتلك التي (حملتنا جميلة) الإقامة لديها.

علمتني الحرب ألا أثق بطائفة. كرهت من حوّل القدس إلى مجرد جامع. لقد أسلموا الصراع وصبغوا بالدين كل حركة مقاومة. لم يكتفوا بهذا وإنما اتهموني بأني أريد أن أوطن نفسي. أنا!! أنا أبيع الدنيا والآخرة مقابل ذرة تراب من أرض فلسطين، مقابل بذرة في برتقالة صغيرة تنبت في يافا. تراهم لا يعرفون عن أية بلد يتكلمون. حتى أوسخ زعمائنا لم يقبل بالتوطين. كان الأمر سهلاً لو أردنا. المخيمات ليست بيتاً طبيعياً. إنها مكان انتظار طويل لا يريد أن ينتهي. لا أحد يتحدث عن الحقوق المدنية للمنتظرين، الواقفين على باب الشوق والدالفين إلى رحاب الانكسار خطوة خطوة.. لا أحد يتحدث عن حقوق المنتظر الواقف الذي ما زال يضع أصبعه على الجرس منذ أكثر من خمسين عاماً. أنا لست لاجئاً. صحيح أنني لا أملك اليوم بارودة الحراسة الروسية الصغيرة ولكني أملك سلاحاً آخر أبقيه صاحياً ليل نهار في المخيمات وخارجها وحولها وفي جامعتي في ليون وفي بيتي. إنني أقف وراء متراسي ولست مشغولاً أبداً بالتصفيق في المهرجانات ولم أنشغل قبلاً.. سأكمل هذا الطريق يا مريم لأن ليس هناك آخر غيره، وساقي المقطوعة شاهدة أبدية على ذلك».

19

عدت إلى جونية في (سرفيس) آخر. كان القرآن الكريم متدلياً هذه المرة من المرآة الأمامية للسيارة بينما كلمات جواد ترن في أذني بشكلها المتواتر المتقطع مرة أخرى وكأني أستعيد شريط (كاسيت) قديم. لقد هالني كم الألم في كلامه وربما كم التحامل. أنا أعرف هذا البلد مثل باطن كفي ومصابة بمرض عشقه هذه المغناج اللعوب الآسرة حتى في خطاياها. جواد لم يستطع أن يغفر. بقي منقوعاً بالهواجس والصفعات وكلمات الإهانة والفقر القديم. لم يغير اللقب الأكاديمي من الوجع ولا البحبوحة المالية ولا حتى حرية التنقل والاستقلالية. لقد أحببت هذا الرجل من كل قلبي. أحببت ألمه وتعاطفت معه وشعرت بالأسف العميق والخجل. كأن بلده قمعه وسحق آماله. قلبه الباكي العاتب على الوطن لم يقو على المسامحة. إن أقسى الطعنات تلك التي تأتي من الحبيب، من يده التي كانت حنونة فيما مضى وقست. الذاكرة العاشقة لا تسامح، لا تغفر تبقى متألمة لآخر العمر. إنها غير قادرة على الفهم واختراق دوافع الحبيب الذي تحول فجأة إلى قاطع رؤوس وجلاد بدم بارد. الذكريات الجميلة تجعل الغفران صعباً بل مستحيلاً. إنها لا تلين القلب الذي طالما استكان على كتف الحبيب - الوطن بصفاء عقل طفل يتهيأ للنوم. الذكريات الجميلة تجعل الألم أكبر وأكثر حدة.

ربما تُغيِّب الأيام الطويلة والأهداف المستجدة شيئاً منه ولكنها لا تمحوه أبداً. وجواد عاتب على البلد الحبيب الذي تحول إلى يد مستعدة للبطش عند أول مناسبة وعيون زجاجية ميتة.

هد جواد باب قلبي بوجدانه. لقد حسم فهمه للأمور الموقف كله. لم يشارك في الحرب الأهلية اللبنانية لأنه كان على قناعة أن الطريق إلى الوطن لا يمر من أي مكان آخر. كل كلمة تفوه بها كانت تجد مكانها في روحي بسلاسة منقطعة النظير. كل حرف تلفظ به كنت أفهمه وكل إيماءةٍ كنت أعرف مصدرها. لماذا لا يقف القديسون إلى جانب الوطنيين المتألمين؟ لماذا يومئون برؤوسهم في الحروب ليقفوا مع هذا الفريق أو ذاك؟؟ إنهم غربان الحروب وليسوا شفعاء لها. سمنتهم فضحت نواياهم. إنهم يقتاتون على جثث رجال ونساء الفريق الآخر ويقيمون الصلاة لنصرة فريقهم. إنهم ليسوا وطنيين فشتان بين القداسة والوطنية. القداسة طائفة أما الوطنية فهي الأرض والأمة التي فوقها كلها. حازم هو القداسة وجواد هو الوطنية. حازم هو جان دارك وجواد هو الأرض. حازم هو «الكلاشنكوف» المستتر في رأس القلم وجواد هو كتاب التربية الوطنية. حازم هو الشمع المشتعل أمام الأيقونة وجواد هو الأيقونة نفسها. أيقونة جواد صمتها مطبق، ثلاثية الأبعاد لكنها لا تمثل هذا العالم الواعي المارق وإنما تريد أن توحي بالجمال العابث للتحرير والعودة للبيت. في أيقونة جواد تُمثل الحقيقة الوجدانية بالرمز. إنه الرمز الذي يختفي فيه كل ما هو شخصي لتتألق مساحة الوطن الكاملة. أيقونته فريدة من نوعها كحال كل الأيقونات، تشهد على آلام عصره وأوجاعه وأحلامه لا من خلال شخصيته التاريخية وإنما مما هو داخل شخصه الموضوع تحت الضوء. جواد ليس لوحة وإنما هو حرف. إنه ليس تحفة معدة للعرض في المتاحف وليس كذلك للزينة فيعلق على الجدران وإنما

هو صورة المرحلة التي امتلأت في كأس مشاعر هذا الرجل الحقيقية.

أنهيت نشيد أيقونة حازم حالما وقفت سيارة التكسي أمام المبنى. لم أجد عبد الرحمن جالساً على كرسي المدخل كعادته. كأنه نفذ ما وعد به. كأنه رحل تاركاً ثلاثين عاماً من الخدمة وراء ظهره بلا أسف. اقتربت من زجاج الغرفة الموصدة الباب بالقرب من المصعد وألصقت جبهتي به وتطلعت إلى الداخل. لم يأخذ عبد الرحمن أي شيء معه. لقد ترك الغرفة بكل ما لديها؛ السرير المعدني العتيق واللحاف الخاكي؛ تركة قوات الردع القديمة والتلفزيون الصغير بالأسود والأبيض وكرسي قديم وبعض الأغراض الأخرى هنا وهناك. لقد «نفد بريشه» ورحل. أشعرني رحيل عبد الرحمن باليتم في بيروت زاد من حدته الرسالة التي تركها لي على عتبة باب بيتي في الطابق السادس. لقد كتبها على عجل بلغته العامية المفككة ومشاعره المرتجلة العفوية وخيط الألم الرفيع فيها «عزيزتي الست مريم.. أنا مسافر بعد ساعة. ما تزعلي مني لأن ما خبرتك.. بس والله ما قدرت ضل أكتر من هيك. بعز علي كان أترك بهالسرعة وبهالطريقة بس كان فيه صديق سوري إلي مسافر قلت بروح معو.. دبرنا سيارة ورحنا. أنا حبيت هالبلد كتير يا ست مريم بس هيّه ما حبتني.. الله بيعين.. انتبهي على حالك. أنا راجع ع الرقة. إذا كان إلنا نصيب منلتقي وإذا لأ منضل تحت أمر رب العالمين.... عبد الرحمن».

قصاصة أخرى تدفع بقطار الزمن والمكان باتجاه سكة ما. قصاصات كثيرة هنا وهناك غيرت اتجاه حياتي. قصاصات كان يكتبها والدي ويدسها بين كتبي عليها عبارات لماوتسي تونغ وعلي بن أبي طالب والنفري وأنطون سعادة، قصاصات من عشاق خفيين لم أرهم مرة في حياتي وأخرى من زملاء في العمل،

ولاحقاً من معجبين بما أكتب. قصاصات من جرائد أو كتب قديمة أو حتى أخرى كنت أعثر عليها في الحلوى الصينية. قصاصات غيّرت اتجاه الطريق عدة مرات من دون أن أشعر وجعلت الحياة تأخذ مجرى لا يخطر على بال. قصاصات أنا كتبتها وأعطيتها لآخرين عليها أفكار وجمل وكلمات كانت تأتيني في هدأة الصباح الباكر أو في لحظات الروح المكثفة. كنت أُغيّر وأتغير ضمن حركة لا تهدأ ولا تعرف كيف تهدأ. رجال يدخلون إلى حياتي ويبقون وآخرون بقوا طويلاً ورحلوا، رجال عابرون ورجال يتريثون قليلاً ثم يغادرون، رجال تمكنت من أن أبقى صديقة لهم وآخرون لم يعرفوا كيف يكونوا أصدقاء من دون طغيان الحب، بينما لم تعرف امرأة أن تترك بصمة صغيرة على روحي.

عليّ اليوم أن أترجل عن صهوة جواد الشوق لبيروت كفارسة قديمة. عليَّ أن أخلع درع الحب الحامي وألقي بأسلحتي الخفيفة؛ قوس اللهفة ونشاب الشغف على الأرض وأن أكمل الطريق سيراً إلى اللاذقية. عليّ أن أنكس الأعلام فوق مبنى أحلامي وأن ألقي حريراً أسوداً فوق تحف وتماثيل طموحاتي الصغيرة فيها حداداً. لم يبق إلا شهقة صغيرة أخيرة لا أعرف متى ستخرج.

الليل طويل وبيروت تتحضر للآتي بينما حازم في مكتبه منكب على التيه. أرسل إيميل يقول إنه لن يأتي الليلة وطلب أن أكون جاهزة غداً لمقابلة الكاهن الذي سيشرف على تحضيرنا للزواج.

ما زلت أعتقد بقوة أن الزواج أفضل صيغة للعلاقة الجنسية ولكني أفضله مدنياً لا دينياً. أريده أن يتم بمباركة قوانين المجتمع المدنية وبحمايتها وأن يذيب الخيوط الكثيرة في نسيج الطائفية الأخرق. فإذا كان شعوري وقناعتي أنني أنتمي لأرضي وأُكنى بها ولها أعمل، إذاً لمَ عليّ أخذ مباركة رجل دين هوسته علاقته مع الله والطقوس؟

يزداد وزن الخاتم الذي دسه حازم في أصبعي كلما اقترب موعد الزواج. يزداد وزنه وكأنه كتلة من حجر الصوان هائلة الحجم. كنت أعلم ما ينتظرني وكنت أقبله بلا جدل بدافع الحب. قُلت الأيام ستجعل انسجامنا الفكري أكثر اتساقاً وسيتغلب الواقع على تضاريس الروح المتباينة بيننا. لن أختلف مع الأيقونات ولا مع الشموع المشتعلة ولا مع أغاني الحب الفرنسية القديمة ولا حتى مع ذكريات الحرب أو هبات البكاء الفجائية. قُلت سأطوع فولاذ اختلافه عني بنار الحب. قُلت أشياء كثيرة تحت وطأة إحساس لا أعرف مصدره. لكن موت الرجل أيقظ الدنيا في داخلي مرة واحدة وإلى الأبد، ولم أعد مخدرة بالأحلام الناعمة وصوت محركات المراكب الصغيرة المبتعدة والمتزحلقة على صفحة الماء في خليج جونية.

20

نمت تلك الليلة على هواجسي لأصحى على هواجس الشارع المنكوب. لقد تم تداول نعوة وزيرة خارجية أميركا «للحريري» عبر كل وسائل الإعلام المتاحة. لم يكن صعباً عليّ أن أقرأ في نعوتها سياسة الأيام القادمة. لقد صبّت فيها مباشرة ومن دون مواربة كل ما تريده أميركا من لبنان؛ خروج الجيوش المحتلة وحل المليشيات وسلطة الدولة الكاملة على كل الأراضي، كما أكثرت من الحديث عن السيادة والاستقلال والحرية؛ أدوات التخويف الأبدية. لبنان ليس بلد «مات الملك عاش الملك». إنه ليس بلد النظام الواحد ولا وجهة النظر الواحدة أو الموقف الواحد. إنه متعدد، متشظ ومتنوع ولكن في تنوعه وتعدده لم أعثر على ديمقراطية حازم وإنما على طوائفه. في سوريا نخاف من الحديقة اللبنانية ونرى فيها أبواباً قد تفتح على المجهول واحتمالا بالزعزعة قوياً. وبقدر ما تفوح منها رائحة أزهار المقاومة الذكية بقدر ما تنبعث من بعض زواياها رائحة الأوراق المتعفنة وروث الزائرين الكثر والضيوف الذين استُحضروا على عجل لزوم دعم سياجها ورفد أرضها بالمخصبات. الخوف من الأخ هو أغرب وأبشع أنواع الخوف قاطبة. هل نحن مرضى بالخوف؟ لقد رأيت مظاهر الحب المتبادل كثيراً لكن الخوف بقي صامتاً ومتحفزاً. خوف العين من النظر، خوف اللسان من الكلام، خوف الأذن من

السمع وخوف الجسد من الحيز. إنه الخوف المجبول بالترقب والإحساس الدفين بالظلم. إنه الخوف الذي يقتل حس الفكاهة والعواطف الصغيرة الجميلة التي تطفو على سطح القلب. ماذا يبقى للإخوة حين يوأد الحب في مهده أو يكون من طرف واحد؟ ماذا يبقى للحلم وماذا يبقى للواقع؟ ماذا يبقى؟

حضر حازم في صباح اليوم التالي وعلامات السهر الطويل حول عينيه المتعبتين. وقف على الباب وسألني إن كنت جاهزة. بدا متوتراً ومستعجلاً. قال إن الكاهن ينتظرنا في مكتبه وإنه في الطريق إلى هناك سوف يشرح لي كل شيء. لاح في كامل أناقته؛ ربطة عنق مناسبة وحذاء نظيف وبدلة رسمية كحلية اللون لا تترك مجالا للشك بجديته. أما أنا فكنت ألبس سروال الجينز وبلوزة قطنية بسيطة وقبعة رياضية. تطلع إلي حازم مدهوشاً من دون تعليق وقال:

- طيب طيب... بسرعة لا نريد أن نتأخر.

أغلقت باب عزلتي ورائي وأخذنا المصعد ونزلنا.

«مريم... اسمعيني منيح حبيبتي. ربما هذه الطريقة في التحضير للزواج ليست مألوفة لدى طائفتك ولكنها أمر ملزم في طائفتي. سيلتقي الكاهن مع كلينا معاً ومع كل منا على حده. لا يكتمل الزواج إلا بالحصول على ورقة من الكاهن تسمح بالتفسيح له. إنه يريد أن يتأكد من أن الحب والحب فقط هو ما يجمعنا ولا شيء آخر» .. ثم تطلع بي نظرة معناها «أن افهمي» جعلتني أرتبك من أفكاري ثم انطلقنا إلى أحد الأديرة في منطقة غزير حيث لقاؤنا المرتقب مع الكاهن.

الصمت كان سيدي والحاكم بأمري طوال الطريق. كنت أقلب مشاعري يميناً وشمالاً وأقلب معها ترددي وحيرتي وما بقي من

حبي لحازم الذي أنهكه تضارب هذا الحب مع قناعاته التي لا سلطة له عليها. ما الإنسان سوى قناعاته؟ ما الرجل سوى قناعاته؟ حين تسقط القناعات مثل ورق الشجر يسقط معها حبي بنفس الإيقاع والطريقة. كلما سقطت واحدة انهارت قطعة من إناء حبي الخزفي وتداعت. القناعات الراسخة تفتنني إذا ما كانت تحمل بذور البقاء للهوية والأرض. هكذا أنا بكل بساطة أزن الأمور بمكيال الوطن غير ذلك أشعر بميوعة بقية القناعات، ربما لأني ولدت في بلد مواجه أو بسبب من تربيتي التي نَحت الطائفة وقدست الأرض ورأت في الانتماء الرصين والتماسك الحاسم ديناً ودنيا. الرجل المتذبذب، الرجل الحائر، الرجل الذي يضع في كفة موقفه الشخصي الديني وفي كفة أخرى وطنه لا أتمناه لا شريكاً ولا صديقاً ولا أريد أن أمر به في الشارع ولو مروراً عابراً. وحازم لم يكن متردداً ولا متذبذباً فقناعاته كانت حاسمة بالنسبة لطائفته ولمستقبل هذه الطائفة لكنه كان يؤلمني ألا يكون بصره أكثر قدرة على المسح فيرى الأرض كلها معاً نظرة واحدة، نظرة حب واحدة. صمتي المطبق خلال الطريق كان أيضاً بدافع أسفي على هذا الحب. ولم تفلح في هز هذا الصمت لاحقاً اللمسات الخاطفة التي كان حازم يبادر بها ولا الابتسامات المشجعة المحفزة والمتشنجة في آن.

حين وصلنا رأيت قبة الدير القديم القرميدية غارقة بين الأشجار بينما ارتاحت طوابقه الاثنين فوق تلة ذات انحدار خفيف. نزل حازم من السيارة ثم رتب هندامه جيداً ورسم على وجهه ملامح رجل يتهيأ لتقرير مصيره. طلب مني أن أخلع قبعتي «بلاها أحسن» هكذا قال، ثم مسك يدي ودخلنا إلى البهو العتيق.

شممت رائحة تاريخ محترق للتو. الدير يشبه معتقلاً للايمان؛ بعيداً ومنفياً. إنه يبعث برسالة واضحة لكل من يهمه الأمر؛ بقدر ما

الدين مؤنث ليكون طابعه شعبياً بقدر ما يساء فهمه على مستوى شعبي أيضاً. إنه بعيد وقريب في آن مثل هذا الدير الهاجع والساكن بين الأشجار. لم يبد لي طابعه شرقياً لأول وهلة وإنما قوطي بدرجة ما؛ النوافذ الدائرية التي تتصدر الأقواس والشكل المستطيل الطويل لبنائه. لم تأت المسيحية من روما أبداً، فقدماها لم تطأ أرض أوروبا إلا بعد ثلاثة قرون، كما لم تنجب اليونان مسيحاً وإنما الناصرة. أما النشيد المسيحي فقد أطلق أبواقه في أرض كنعان وكان شرقياً محضاً.

لقد كان الدير فيما مضى مدرسة قبل كل شيء وليس كنيسة فقط أو خاناً للعابرين. لقد كان هم الأديرة القديمة أن تعلم الرهبان أو الأطفال الذين يتحضرون لحياة الرهبنة. كان كل دير مدرسة، وكل تربية إنما تتم في دير أو في مؤسسة يديرها الرهبان. هكذا كانت الأمور قديماً ولقرون خلت. أما العلم والفلسفة فلم يكونا رسميين ولم يحظيا بشرف تربوي مميز. تُرى هل كان الرهبان حقاً يمحون الفلسفات القديمة وآدابها ومعارفها الممهورة على رق الحيوانات لكي يكتبون بدلاً منها سير القديسين وحياة الأديرة اليومية؟ كأن المسيحية قد عرفت كيف تحل الترويض الأخلاقي محل الفلسفة الأخلاقية وأن تهيئ إنسانها لا لهذه الحياة وإنما للحياة الأخرى!! لقد كرِهتْ السعادة العاجلة ونزوات الروح الصغيرة وهذا التبدي الملفت للجمال الجسدي واعتبرتها حصوناً وثنية يجب دكها. قالت إنها أتت للفقراء، وفي الحال فرزت هذا العالم إلى طبقتين (الدين للفقراء والعلم والفلسفة للأغنياء) وجعلت مجرد التفكير بهما يُشعر بانقسام العقل إلى نصفين. الاثنان يبحثان عن الحقيقة لكن كل منهما في رقعته الخاصة. كانا طريقين متوازيين لن يلتقيا. واليوم لم تعد تحاول هذه الأديرة أن تترك بصمتها على كل شيء ابتداءً من قصة الشعر وحتى ترتيب

الملاعق في جوارير المطبخ وذلك لأن الثورات الاجتماعية لاحقاً في أوروبا قد أطاحت بها رسمياً. أما قرار حياتي فهو تحصيل حاصل. إنه هناك بين الأيدي التي اتقنت التضرع ودفع صواني التبرع أمام المؤمنين. لقد جعلني هذا الدير أفكر بعقلية العصور الوسطى. فالتاريخ يحترق في زواياه وقد شممت رائحة الاحتراق حالما دلفت من دون قبعة أنا وحازم من بابه الحديدي العريض.

وبينما كنت أتأبط حيرتي كان حازم يمسك بيد جان دارك ويتقدم بخطوات راسخة. وهناك أمام باب مكتب الكاهن الملحق بالكنيسة هبّت نسمة رطبة لها نكهة أحجار الدير بينما لاحت صورة لمار شربل أعلى الباب وكأنه حارس للمكان.

«الأب جوزيف هو رئيس الدير والكاهن الرسمي لخدمة قداس الأحد في الكنيسة هنا. إنه صديق قديم لي من أيام الدراسة والحرب» هكذا عرفني حازم على الكاهن الذي بادر في الحال مرحباً بابتسامة مرتبة ورعة «أهلاً مريم... سمعت عنك كثيراً من حازم تفضلي.. تفضلاً..» وأشار إلى كرسيين فخمين من الجلد البني أمام المكتب.

21

رأيت جرثومة الحرب في عيني الأب جوزيف. رأيتها ساكنة هاجعة لكنها حاضرة. لقد كانا، هو وحازم، من أبناء الحي نفسه الذي تلقى نصيبه من قذائف الهاون والصواريخ التي كان يمطرهم بها الفريق (الثاني). وبينما داوى حازم جرثومته بالصحافة والسياسة والحب لاحقاً، داواها رفيقه بالتنسك والرهبنة بعد أن أدمت يديه الأسلحة التي كانت ترد إلى حيهم من الحزب والتي برع في دكها وفكها وتعبئتها والتصويب بها. ندوب كثيرة رسمها بتؤدة الصهيوني والفلسطيني والسوري والأميركي والفرنسي وكل العرب من المحيط إلى الخليج على روح اللبناني الخارجة للتو من حربه الأهلية الطويلة. رأيت كل هذا بلمح البصر في عيني الأب جوزيف الخضراوين الغائرتين وفي حلقات السهر الطويلة حول عينيه. قد يضيع التاريخ المدون على الأوراق بسهولة لكنه من المستحيل أن يمحى من نظرة العين. العيون هي وعاء التاريخ الأبدي. ولكن من يتقن القراءة؟ من يعرف كيف يفك شيفرة الهذيان والتيه الإنسانيين ويداوي العطب المزمن فيهما، من؟

كان الأب جوزيف «كتائبياً» مراً عاش تحت وطأة (الوطن المسيحي) المهدد بالثورة الفلسطينية والشك بالنوايا العربية التي كان موقفها محسوماً لصالح الثورة، والنوايا الغربية التي رأت

الحل بالهجرة الجماعية للمسيحيين إلى أميركا. امتلأ بفكرة المؤامرة والخوف من دفن القضية الفلسطينية في لبنان إلى غير رجعة وتوطين الجميع. لقد كان يرى الوطن (الإسلامي ـ المسيحي) مستحيلاً وهو قابض على سلاح القناص في ليالي الحرب الطويلة. كان شاباً يافعاً عندما لفت المناطق المسيحية حواجز النار وهكذا وجد طريق الإيمان سريعاً في أفق آخر محاصر وبعيد عن وسطه الطبيعي. نظرة عينه الحزينة العميقة وانحناءة ظهره الخفيفة المبكرة ونحوله وبداية الشيب على مفرقه هي آثار جرثومة الحرب لا محالة.

أيقظتني رائحة التاريخ المحترق مرة ثانية من أفكاري حينما استرحت على كرسي مكتبه الوثير.

ـ من أين نبدأ؟ قال الأب جوزيف مبتسماً بمرح وهو يفرك يديه.

ابتسمنا أنا وحازم وتطلعنا ببعض.

ـ عظيم... عظيم... يبدو أن مهمتنا ستكون سهلة وسريعة. أنتما ناضجان ولا أعتقد أننا سنضطر إلى جلسات طويلة.. لكني أريد أن أرى كلاً منكما على انفراد على الأقل لمرة واحدة.

هززت رأسي علامة الموافقة وكذلك فعل حازم ثم أخذنا نستمع إلى عظة قصيرة عن الزواج الماروني وأصوله والذي لا فكاك منه حتى بالخيانة. كنت أصغي بروح الإنسان الذي يريد أن يتعلم مبعدة قدر الإمكان روح مريم التي تتحضر للزواج. هل هذه مقدرة خلقها النضج؛ أن أفصل ذاتي عن المعلومة التي أسمعها فأستفيد منها؟ رأيت الإعجاب بإصغائي في عيون حازم الذي كان ينقل بصره بسرعة خاطفة بيني وبين الكاهن. رأيت الراحة التي

هبطت عليه فجأة والابتسامة الخفيفة المرسومة على وجهه، فها نحن نصل إلى آخر الطريق معاً رغم كل الصعوبات. يومان والورقة ستكون بيده وسنتمكن من الزواج حتى في أصغر كنيسة على أعلى رأس جبل في لبنان.

وأخيراً، التقيت وجهاً لوجه أنا والأب جوزيف بعد أن خرج حازم. كأن العالم كان واقفاً على طرف هاوية. أنا السورية العلمانية وهو المليشياوي السابق وراعي الكنيسة الحالي. أية هوة تفرق بين عالمينا وأي جسر يمتد فوقهما؟ وكما علمته الحرب كيف يكون بارعاً في التصويب كذلك علمته كيف يقتنص اللحظة وينطلق منها مثل الشرر. وتبلبل السكون بكلمات الرجل التي نفذت إلى داخلي كسهم النار:

ـ تعلمت أن أشيد بناء علاقتي مع الآخرين على صخرة الوضوح. هل أنت كذلك أيضاً؟

ـ نعم.. أنا مثلك؟

ـ إذاً، هذا يسهل حوارنا إلى أقصى حد.

ـ كلي سمع.

ـ مريم.... لكل امرأة ورجل ماض ما في بيروت الحرب الأهلية. ماض ملأه الألم والجروح والدماء وأصوات المدافع. لقد دفع اللبناني سلفاً ثمن موته واستراح. دفعه (على آخر مليم) وهو اليوم غير مديون لا للدنيا ولا للآخرة ويحق له أن يحيا لحريته ولموقفه الجديد من كل شيء حوله. لقد خلفته الحرب بندوب واضحة في وجهة نظره وروحه. اليوم أنا لست فقط هذا الكاهن الذي يحضرك أنت وحازم للزواج. فوراء هذه الطبقة تركن طبقات أخرى أقدم وأكثر حدة. قد لا تكونين معنية بها الآن ولكني أريد أن أشرحها لك لأنها هي ذاتها تركن في قلب حازم.

وقام الأب جوزيف من مكانه وراء المكتب الخشبي وجلس على الكرسي المقابل أمامي وأكمل:

ـ أنا لا أستغرب الحب بينك وبينك حازم... الحب بذاته قادر على تذويب التناقضات. لكني أفهم أن جريمة الحريري أرخت بثقلها عليكما، عليك أنت بالذات. لم يكن من الصعوبة أن أرى هذا على وجهك أول دخولك.

ـ ....!

ـ لكنك لم تعيشي الحرب مثلنا. قد تساعدك قراءة التاريخ على الفهم ولكن معايشته أمر آخر.

ـ أنا أحاول أن أكون موضوعية دائماً.

ـ لم نكن نحن و«أنتم» موضوعيين في فهمنا لبعضنا اليعض يوماً ما. لم نكن أبداً. حين دخلت قوات الردع إلى بيروت الشرقية، ظنت دمشق أن المسيحيين سوف يرشون آلياتها العسكرية بالأرز خصوصاً أنها أتت لكي تردع الانفلاش الفلسطيني في كل مكان. لكن هذا لم يحدث. لقد كان صعباً علينا أن نرى الحواجز السورية تفتش المارة والسيارات وتطلب هوية هذا وتنزل ذاك وتحقق معهم. عاد كل هذا الحذر القديم في لمح البصر، عاد لأنه لم يزل يوماً ما أبداً. كل شهور العسل بين لبنان وسوريا أتت بعد زواج سريع وابن لحظته فرضته الظروف. لم يقبل المسيحي أن يمارس العسكري السوري عليه سلطته حتى لو كان الثمن وقف الحرب!! أنا أعترف لك أن نظرة المسيحيين إلى عسكر سوريا هي نظرة فيها الكثير من التعالي، النظرة نفسها إلى العمال السوريين الذين كانوا يأتون بالآلاف ليعملوا هنا في أملاك المسيحيين وأراضيهم. لم يتحمل المسيحي أن يرى العامل الذي كان يعمل في أرضه يوماً واقفاً على الحاجز يطلب منه بطاقته الشخصية. لم يتقبله صاحب

سلطة حتى لو كان حدود ذلك سؤال بسيط عن الهوية. نحن لم نرد يوماً التعامل مع إسرائيل... كنا أمام خيارين إما الفناء في الرقعة التي عُزلنا بها وأحاط بها سياج النار بينما نقاوم الفلسطيني الذي أراد إشعال ثورته ها هنا، أو اللجوء إلى إسرائيل لطلب الأسلحة! لقد لذنا بأهون الشرين وقررنا البقاء على قيد الحياة. لو كانت سوريا تقف إلى جانبنا من أول يوم اشتعلت فيه الحرب ولم تأخذ جانب الجبهة الأخرى لما فكر أحد فينا بطلب المعونة من أولئك. أنا نفسي من تبرع بالذهاب على متن مركب صغير إلى مرفأ حيفا لمقابلة اليهود. كنا حفنة مترددين. تركنا مرفأ جونية وانطلقنا إلى عرض البحر. لم يكن الأمر سهلاً. لم نكن نعرف عدد مقاتلينا وكمية الأسلحة التي في حوزتنا. كان الأهالي يتبرعون بالذخيرة ويشترونها من أموالهم الخاصة وينزلون إلى الشوارع لكي يقاتلوا. وفي يوم نفذ كل شيء لدينا وكنا قاب قوسين من الفناء، وهكذا بدأ كل هذا الجنون. كان الجيش غائباً والسيادة مستهدفة من الفلسطينين ومن معهم من الأطراف التي أرادت أن تضع حداً لحكم الموارنة في لبنان. ولم يكن أمامنا إلا هذا الطريق. في الحرب يا مريم لا يمكن الاحتفاظ طويلاً بإيديولوجياتنا القديمة.... في الحرب كل شيء جائز. ما يحدث اليوم ليس سوى إحياء للتركة القديمة.. إحياء مر وقميء. لا تزجي بحبك أنت وحازم في قلب هذا كله ولا تدعي مسيرة زواجك منه تتطابق مع مسيرة زواج البلدين لأن هناك الكثير من أيمان الطلاق التي ستلقى بينهما وكثيراً من عودة المياه إلى مجاريها أيضاً. هكذا نحن صديقان لدودان.

أطرقت طويلاً بعد أن أنهى الأب جوزيف كلامه. لم أقوَ على الرد أو ربما لم أر فائدة من فتح باب الهول مرة ثانية. ابتسمت له بهدوء وهززت رأسي بتأمل متوتر واستأذنت بالخروج .

لم أعثر على حازم ينتظرني في الخارج.. بحثت عنه في غرفة الإنتظار الملحقة بمكتب الأب جوزيف فلم أجده، خرجت إلى الحديقة المحطية بالدير أيضاً لم أعثر عليه. عدت أدراجي ودخلت من الباب المفضي إلى الكنيسة فرأيته هناك راكعاً في الظلام أمام المذبح يصلي.

أسقط في يدي. كل شيء كان متوقعاً إلا أن أرى حازم بأم عيني مطأطئ الرأس للأيقونات، مغمض العينين ويصلي بضراعة أمام الكاس المقدسة.

أخيراً هو في مكانه الطبيعي تماماً ولكن من الجهة الأخرى للمذبح.

22

أخذت غربان كثيرة تنعق في سماء بيروت. كنت أسمعها بوضوح لا لبس فيه. وتحت هذه السماء ودعني حازم أمام باب بيتي وانطلق بسيارته سعيداً. أتخيله يغني بالفرنسية وهو عائد إلى عمله وقد امتلأ بنشوة الانتصار والحب في آن. أكره أن أخذله، هذا الذي وضع بين يدي حبه وحيرته وقلقه وكل وجع الماضي. لكن للحب تبعات وللعيش المشترك تنازلات ولصيغ التفاهم مناخ سيفرض نفسه علينا لا محالة. فإذا كان حازم قد دفع سلفاً ثمن موته كما قال صديقه الحميم الأب جوزيف، تُرى ما هو ثمن موتي أنا؟

أصبحت العودة إلى اللاذقية لا مفر منها من أجل التحضير والتفكير وتهيئة العائلة لما هو قادم. أصبحت أقرب للواقع وأبعد عن الأحلام، أحلامي التي لويت رقبتها بكل قسوة وتمزقت غلالاتها واحدة واحدة وتشوه وجهها حتى بدت كطفلة لقيطة في شارع خلفي. سأتزوج قريباً. سوف يضاف اسم عائلة حازم إلى اسم عائلتي كما هي العادة هنا. سوف يظهر الاسمان معاً من الآن وصاعداً على كل كتبي القادمة وأبحاثي ومقالاتي وسوف يبدو عليّ سيماء الزوجة الرصينة في المحافل الأدبية والاجتماعية والسياسية التي يصحبني معه إليها، وهناك سوف لن يكون

بإمكاني أن أخالفه الرأي كثيراً، فنحن واحد ورأينا واحد وموقفنا واحد. وإذا ما فكر في المستقبل أن يصبح نائباً أو وزيراً أو حتى رئيس حزب كما هو الحال في مسيرة بعض الإعلاميين أو الصحفيين فعليّ أن أقف وراءه وأدعمه بقلمي أولاً وبموقفي. ومن يدري لربما حضر إلى صالون بيتنا رجال ونساء لا أتخيل رؤية وجوههم يوماً ما ولا أتمنى أن أضع يدي في أيديهم أبداً! ولربما اضطرني الأمر حتى أن آخذ الصور التذكارية برفقته في حفلات الاستقبال في سفارات دول أعتبرها كارثة على رأس أمتي! لربما حدث كل هذا وأكثر.. من يدري! وحين يأتي أول طفل فإنه سوف يصغي إلى ايديولوجيتن متناقضتين، وسوف يتعرف على نسختين متضاربتين عن مفهوم النضال وسوف ينمو على التمزق لا الغنى وعلى التشتت لا التناغم وسوف يذبل الحب ويموت مثل وردة شامية في عز عنفوانها.

غطيت وجهي بيدي وأنا أبتعد بمخيلتي إلى مشاهد حياتنا المفترضة، مشاهد يتقاطع فيها الحب والإكراه الصامت والحذر والتهرب والمسامحة والوفاء الكاذب وكلمات الود الروتينية واللمسات الخالية من الإحساس والتنازلات أخيراً لصالح العائلة ولصورتنا أمام الآخرين وكأن كل شيء على ما يرام. أصبحت العودة إلى اللاذقية أمراً لا مفر منه. سألتقط أنفاسي هناك. هكذا قلت.

تركني حازم أعود على مضض في سيارة عبد السلام التي يقودها سائقه الخاص. لقد أتى في صباح اليوم التالي باكراً ليودعني. قال أشياء كثيرة وهو يمسك بيدي ولكني لم أكن حاضرة تماماً فأستوعبها. رأيت شفتيه تتحركان بتواتر هادئ متقطع وعينيه ناعستين ذابلتين لزوم اللطف. ثم احتضنني وشد بكل قوته قبل أن أصعد إلى المقعد الخلفي وهو ما زال يمسك يدي

وأنا أتطلع إليه من نافذة السيارة. وأضاف كلمات أخرى ونحن على وشك الانطلاق. ومرة أخرى قبلني بسرعة وشد على يدي بقبضته (انتظريني الأسبوع القادم.. أنا جاية يا عروس). وانطلقنا.

وفي الطريق اتصل بي مرات كثيرة ليطمئن عليّ وأنا شاردة أتطلع إلى البحر الممتد بين المدينتين. «اتصلي بي متى وصلت الحدود»، «اشتقتلك»، «هل السائق مسرع؟ قولي له أن يتمهل.»، «لا تنسي أن تتصلي أول رؤيتك للمدينة»..... وكلمات أخرى سدت الأفق أمامي. كنت أراقب مشاعري التي فاضت إلى خارج السيارة المسرعة. شعرت بالانفصام، كأن شيئاً انزاح من مكانه في داخلي وابتعد. وأخذت أقلب هذا الشعور طوال الطريق وأنا أشكك في وجوده وأتجنب مواجهته وأرجعه إلى غثيان السفر الذي زاد من حدته الحفر الكثيرة والبرك الممتلئة بماء المطر قبل المنطقة الحدودية وما بعدها بقليل. كان رأسي مائلاً على الزجاج أتطلع بطرف عيني على المشاهد التي تمر مسرعة من ورائه وقد ملأني حدس لا سلطة لي عليه؛ لست بعد مهتمة بأي شيء وأنني لو مت اللحظة لكان الأمر سيان عندي.

عندما وصلت إلى منطقة «العبدة» قبل الحدود السورية بدقائق، كانت المحلات التجارية مغلقة كلها إلا من بعض بقايا الألبسة المزركشة المتطايرة على الحبال التي كانت معلقة على أبوابها الخشبية العالية والتي أُدخلت على عجل. الطريق كله من بيروت وحتى منطقة المعابر الحدودية كئيب خال ويثير الرثاء. منذ عشرة أيام كانت قوافل الشاحنات التي تحمل البضائع بالاتجاهين تصل إلى بضعة كيلومترات مثقلة بالمؤن والمواد بينما اكتظت منطقة العريضة بسيارات الإجرة العمومية والخاصة وحركة نزول وصعود للركاب لا تهدأ. كان هناك ضحكات

ونكات وصياح يبلبل الفضاء. كان هناك حياة. أما الآن فقد انتشر صمت القبور فوق هذه المنطقة المهجورة، بينما الأجواء الساكنة مشدودة بالبرد القارس والحذر المريب.

هرب عقلي مرة ثانية إلى التاريخ وأنا أنتظر سائق عبد السلام لكي ينهي ختم الأوراق. لقد وقع يمين الطلاق بين البلدين فيما مضى ثلاث مرات في منطقة المعابر هذه. أولها عام 48 حين انتهت الوحدة النقدية مع سوريا وأصبحت الليرة اللبنانية هي العملة الوحيدة ذات القوة الابرائية في طول وعرض البلاد. أما ثانيها فكان عام 50 حينما أعلنت سوريا قطيعتها الاقتصادية مع لبنان ولم يعد هناك وحدة جمركية بينهما وذلك بسبب الميول الليبرالية للاقتصاد اللبناني والتي لم تكن سوريا قادرة على استيعابها بعد. وثالثهما عام 73 حين أقفلت سوريا حدودها كرد فعل على ما كان يجري بين المنظمات الفلسطينية والجيش اللبناني. واليوم الحدود مفتوحة لكن الحياة فيها مؤجلة إلى إشعار آخر. إنه الصمت الذي يسبق الطلاق بقليل، أما البضائع القابلة للتلف والتي كانت محملة فوق قوافل الشاحنات الطويلة المنتظرة فهي تهيئ هي الأخرى الزمن القادم لما هو أعظم. إنها قوافل لم تكن معدة لكي تلقي حمولتها في مواقعها السورية فقط وإنما كان البعض منها يتحضر للعبور إلى الأردن والعراق والإمارات.

أعرف أنني أحتفظ بطبوغرافيا سوريا الطبيعية مطبوعة على روحي، وأعرف أن لبنان يقع فيها موقع القلب من الجسم.. وأعرف أنني لا أتقن قراءة التاريخ من دون أن أتلمس تضاريس الأرض التي جرى فوقها، فالتعرف يكتمل باللمس والثقافة العذرية لم تفعل شيئا إلا تشويه الدنيا الحقيقية حولنا. لقد شطحنا كثيراً كعرب في أدبيات العفة حتى بتنا لا نعترف بوجود أعضائنا

التناسلية. لقد اكتشف البحارة المسلمون البوصلة المغناطيسية التي قادتهم في الدروب الصحيحة إلى الشرق والغرب وكل الاتجاهات لكنهم حالما يصلون كانوا يرتبكون ويمتنعون عن التصرف بسبب خوفهم من اللمس والاستكشاف. لقد امتلأت مراكبنا التي عبرت المحيط الهندي والمتوسط والخلجان بالبوصلات التي مهدت الطريق إلى كل العالم. لكن ما إن نصل حتى تتلبسنا العفة فنعرض عن اللمس، اللمس الذي يكتمل فيه الاكتشاف والمعرفة.

حين أتطلع إلى خريطة سوريا وأرى هذا التناوب الفتان في أراضيها المنخفضة والمرتفعة التي تحازي بعضها البعض والممتدة من الشمال إلى الجنوب على شكل سلاسل خمسة جميلة، أجد أن لبنان يعبر في أكثر أربع سلاسل أهمية من بينها. إنه هناك يشرف تماماً على الممر السوري - اللبناني - الفلسطيني. حين كنت أتطلع أنا وحازم من حريصا على هذا القسم الضيق من السهل الساحلي السوري، أدركت كم هو صعب عبوره على الفاتحين وكم هو الأكثر أماناً ودفاعاً على المقيمين فيه. أما الجبال القريبة الموازية لهذا الشاطىء فربما هي الأكثر ارتفاعاً في سوريا كلها والأكثر وعورة. ومن أعلى جبال هذه السلسلة الغربية يمكنني أن أطل على وادي البقاع الذي يقف متحكماً من طرفي هذه السلسلة الجنوبية والشمالية بالمعبرين الأساسيين من الساحل إلى الداخل. ليس لبنان بلداً صغيراً. فالقلب هو العضو المتحكم بحياة الجسد كله والمنفتح على كل معابره تماماً كما ينفتح لبنان على بلاد ما بين النهرين والخليج القاري عن طريق فرجة حمص والطريق التي تؤدي من عكا وحيفا وصور وصيدا إلى دمشق والصحراء. إنه في المنتصف كالابن المدلل بين أبويه ونقطة ضعفهما الأولى. أما سلسلته الشرقية فهي المدخل أيضاً إلى الداخل السوري وكل ماعداه عن طريق معبر مجدل عنجر - وادي

بردى أو طريق حمص دمشق. ألهذا كان طريق القدس يمر عبر جونية؟ ألهذا كان الطريق إلى دمشق يمر عبر عنجر؟ ألهذا كان لبنان شوكة في الخاصره الفلسطينية والسورية بأكثر المعاني جغرافية وعاطفية؟

هز شرودي صفق باب السيارة بقوة من قبل سائق عبد السلام. لقد أنهى معاملات الخروج بسرعة لكنه لم يسلم من التهكم الصامت فعاد ووجهه مكفهراً وفي فمه ماء. وانطلقنا بعد أن عبر الحدود باتجاه الطريق المؤدية إلى مدينة طرطوس وفي الحال اختلف الهواء وكأنني عبرت بوابة الزمن بلمح البصر ودلفت إلى عصر مختلف كلياً.

كل شيء هاجع ها هنا، كل شيء ساكن تحت رض الصدمة الأكثر وجعاً. حتى البرد القارس كان من دون ريح أو ضجيج. طلبت من السائق أن يدير المذياع وأخذت استمع إلى أخبار الظهيرة من إذاعة دمشق وأتلمس طريقي خبراً خبراً في هذه المنطقة على الجهة المقابلة للحدود.

23

بدت اللاذقية وكأنها لا تشبه أية مدينة أخرى. فحين رأيت أطلالها تتصاعد أمامنا ونحن نتقدم باتجاه مدخلها شعرت أن كل شيء انتهى. كأنني أغلقت باباً خلفي ورجعت. كنت أتطلع إلى الناس في الشوارع وكأنني أريد أن أفهم شيئاً من وقع هذه الكارثة علينا. هل الوجوم على الأوجه مجرد فرط في التوهم من قبلي؟ كانت الوجوه الأوغاريتية العتيقة قد حبست في لحظة دقيقة من انفعالها وكأنها خارجة كلها من لوحات رامبرانت؛ النظرات التي تفشي التجليات الأكثر مرارة كانت هناك ماثلة بكل وضوح ومن دون مواربة. حتى عندما دلفت من باب المبنى الذي أقطن فيه عاجلني أحد الجيران بكلمة «الحمد لله على السلامة» بوقع وجرس مختلفين وكأنني كنت قادمة من محرقة غضب مستطير.

لسوريا حسابات أخرى. إنها تقف على الضفة الأخرى للنهر بينما تضع على عينيها كل عدسات الدنيا. إنها ترى الأشياء أكبر مما هي في الواقع. وربما هي لا ترى إلا الواقع تماماً الذي صغر في عيون الأخرين وتلاشى. إنها مكبرات الخوف والحب. كلاهما يضخمان الأشياء ويلقيان عليها مسحة بأبعاد خاصة. الخوف يجعل من النملة فيلاً أما الحب فيجعلنا نرى القرد غزالاً. وسوريا إذا أحبت امتلكت وإذا خافت امتلكت أكثر. وفي لحظة ما تتطابق

صورة الفيل والغزال ليصبحان وجهين لعملة واحدة. ولهذه العملة - الصورة ذاكرة متألمة ما زالت تحمل رضوض العمل الجراحي الانفصالي منذ وقت قريب. أنا أرى بأم عيني كل يوم كيف يلتهب الجرح القديم عند أول احتكاك وكيف تعثر سوريا على الدواء المهدئ. أرى كيف يتم ترقيعه كل يوم ومداواته بشرب ماء التعايش من «طاسة الرعبة» الشامية القديمة أو بالمحاليل العشبية المزروعة على قمم الجبال الحدودية أو بقراءة نصوص من التاريخ الكنعاني العتيق. أرى كل هذا بعين الرضى لأني أومن بأن الطبيعة التي أوجدت المرض أوجدت معه في الجيب نفسه الدواء. فإذا كان المرض ها هنا فإن الدواء ها هنا أيضاً. لكن الوجوه التي هدها الارتباك من وقع ما جرى كانت معطوبة الذاكرة فلم تعرف كيف تهدئ من روعها أو تضمد هذا الجرح المفتوح أبداً وتهيل عليه تراب الفهم.

لقد عرفت سوريا أن عليها أن تقتلع ذاتها من لبنان من دون عمل جراحي أو من دون أن يدفعها أحد ما قسراً لفعل ذلك. عرفت هذا قبل اغتيال الرجل. فحين يموت الحب بين الشريكين يصبح من غير المجدي نفخ الهواء في الدواليب المثقوبة أو اختراع القبل واللمسات الحانية، ويكبر حينئذ في عقليهما فهم آخر لمصالح كليهما كل على حده وجهد خفي يحفزه أمل جنوني أن الأمور لربما قد تعود هكذا في لحظة ما إلى مجراها الطبيعي. لكن هذا لا يحدث. فكلا الشريكين يعرفان أن الجراح الكثيرة تتراكم كأهرامات الجيزة وتصبح بينة للعيان بحيث يصعب تجنبها أو عدم الحديث عنها. الحب يجعل الأشياء ظاهرة أكثر مما هي في الواقع والخوف يجعل الهروب منها أسرع. وكل حب يحمل في تضاعيفه خوف ما يجعل فكرة الهروب حاضرة بقوة تارة وبخفوت تارة أخرى. أما الاستسلام والتماهي الكلي فهو معطى حقاً لقلة ممن

ألغت الثقة الخوف من قلوبهم وجعلتهم يرمون بأسلحة الندية والدفاع عند قدمي الآخر ويعزفون عن فكرة الهروب الأمر الذي لم يحصل مرة بين سوريا ولبنان.

لقد رأيت كل هذا بأم عيني عندما عدت إلى اللاذقية، رأيته حتى في عيون الأطفال بينما كان علي أن أتهيأ عملياً لعكس هذا فأخطط بروح المرأة اللامبالية لحفلة عرسي وكأن شيئاً لم يكن.

طلب مني حازم بعد عودتي أن أرتب لكل شيء بينما يلحق بي إلى اللاذقية؛ الكنيسة، ترتيب الزواج مع الكاهن وكل التفاصيل الأخرى التي تجتمع في عرس مرموق تقليدي. قال إنه لن ينتظر يوم واحد بعد أن نرتب لكل شيء. «قولي للكاهن أن يكللنا في أقرب وقت يستطيع... وأنا قادم خلال أيام».

وفي غمرة هذا التيه وصلتني رسالة جواد الالكترونية على (المسنجر) لتلقي ضوءاً فوق عتمة الغياب ولتضع النقط فوق الحروف بخفة يد ساحر.

«صباح الخير أيتها الهاربة... أين أنت؟ وصلت للتو إلى ليون وفكرت أن أكتب لك. كيف هي بيروت؟ أما زلت هناك؟ لا أتمنى أن تظني أني أتحامل على المدينة أو الماضي لمجرد التحامل. لكني غير قادر على النسيان. أنا فلسطيني يا مريم. هل تفهمين هويتي؟ أجزم أنك تفهمين. اكتبي لي... جواد»

وفاجأته بردي السريع وكأني كنت بانتظاره:

«عدت إلى اللاذقية... أنا أفهم ما تقول. نحن لا نتحامل. إنه الألم ولا شيء غيره. إني أراه أيضاً هنا. منذ أن عدت وأنا أراه حتى في الهواء. لعله التاريخ.. التاريخ المؤلم بنسخته العربية».

«آآ... أنت هنا!!... مريم.. لم يُسمح لنا أن نكتب يوماً نسخة تاريخنا بالعربية. لقد كتبنا تراثاً مهولاً من الشعر بالعربية ونزل

القرآن علينا بالعربية لكن بعد ذلك أتى من يمسك بيدنا ونحن نخط تاريخنا التالي، وهكذا أتت النصوص بلغة غير مفهومة... حديثيني عنك..».

«عني أنا..!!».

«نعم عنك أنت.. أشعر أنك قريبة جداً مني..»..

«ماذا تريدني أن أقول؟.....».

«قولي أي شيء...».

«سأتزوج قريباً....».

«............. متى قريباً؟».

«.. لا أعرف.. أقصد.. ما زال هناك بعض الأمور بحاجة للترتيب والحسم..».

«الحب مثلاً..؟!».

«الحب!!..... نعم... إنه الحب».

«هل.. هل تحبينه؟..».

«.............................».

«مريم... أنت معي؟».

«.. نعم.. أنا معك».

«هل تحبينه؟....».

«.. لا أعلم!...».

«فهمت...».

أخذت الرسائل بيني وبين جواد تزداد وتخلق حولي مناخاً لم آلفه من قبل ولم أستطع الخروج من سياجه. لقد وضعني وجهاً

لوجه أمام الحقيقة بكل بساطة، الحقيقة التي لسطوعها جعلتني قاب قوسين أو أدنى من الانهيار. لقد أدخلتني في نفق الاكتئاب المرير والأفكار السوداء التي لاحت استحوانية بدرجة ما. تُرى هل هي الحقيقة نفسها التي يرددونها في وسائل الإعلام اللبنانية؟ لماذا لا أنسى كل شيء وأتهيأ للآتي وأهتم بالتفاصيل الصغيرة التي وعدت حازم أن أقوم بها من أجل التحضير للعرس؟ لماذا لا أتجاهل ما يحدث حولي وأتوقف عن متابعة نشرات الأخبار والتعليقات والشتائم وفورات الغضب التي تصدر عن رجال فقدوا الذاكرة أو قطعوا صلاتهم بالماضي القريب وأداروا ظهورهم لسوريا بلمح البصر؟ لماذا أترك نفسي للتأثر المر والانتباه الأخرق لما يقال وما لا يقال؟

لقد برع كل من حازم وجواد في إثارة غبار التاريخ حولي وكأني في حلبة لمصارعة الثيران. كل منهما أدخلني في عاصفته بحذاقة نابعة من زاوية رؤياه ومن فهمه «للحقيقة».

بعد يومين من وصولي إلى اللاذقية اتصلت بحازم على هاتفه الخلوي. عندما سمع صوتي صرخ فرحاً:

«بنت حلال.. كنت أفكر بالاتصال بك من ثوان» لكن صمتي جعله يستفهم عما بي.

ـ حازم.. أرجوك أخّر قدومك إلى اللاذقية..

ـ لماذا.. ألم تنتهي من الترتيبات؟

ـ لم أفعل شيئاً بعد.

ـ لمَ؟؟ ما بك؟

ـ .... أعتقد أن علينا أن نتريث قليلاً....!

ـ ....

- لدينا الكثير من الوقت.. يعني لمَ العجلة..!

- ....

- ثم إن فترة تعارفنا كانت قصيرة وأنت... أقصد أنا وأنت لربما.. يعني.. أقصد لمَ لا نأخذ المزيد من الوقت. الورقة معنا.... و....

- ....

- حازم!.... حازم... أتسمعني!!

ورد بصوت مخنوق:

- ... أسمعك جيداً..... اليوم... اليوم كنت أقرأ ما كتب الكاهن على ورقة تفسيح الزواج التي أعطانا إياها...... لقد كتب «الحب الشديد».

- ....!!

هطل مطر كثيف في تلك الليلة، مطر يكفي لإغراق البلد لسنة كاملة. مطر لم يتوقف لأيام وحازم لم يتصل بينما امتلأ بريدي الالكتروني برسائل جواد وأسئلته ومقالاته ونكاته وصور كثيرة له. الصداقات الكبيرة تولد فجأة وكذلك الحب الكبير، يأتيان من دون مقدمات ولكن دائماً في توقيت خاطىء. والتوقيت الخاطىء هو افتراض كرسته العادات الاجتماعية والقوانين الشفهية ووجهات النظر التي لوثها الدين. التوقيت الخاطىء يعني أننا انحرفنا عن الطريق قليلاً لأن شيئا ما لاح في الأفق يروق للقلب الذي قض مضجعه التصحر والجفاف القاتلان. التوقيت الخاطىء هو حجة المتحجرين، المتحفظين والحافظين لمسيرة الحياة عن ظهر قلب. إنه هرطقة الذين لا قدرة لهم على الإبداع وحجة المترهبنين الكذبة. التوقيت الخاطىء هو الادعاء في أوجه حينما لا يكون للمرء قدرة على فهم الإشارات التي تأتي من الله. لقد

وصلتني رسائل إلهية كثيرة في توقيت خاطىء.. كنت أتردد للحظات لكن لا ألبث أن أنصاع لها لعلمي أن الجمال لحظة والحقيقة لحظة والمعنى لحظة إن لم نقبض عليها، انتهينا فوق مزابلنا المحسنة. وأنا سأتصالح مع نفسي في الحال وأضرب بسيفي الخفي ضربة لا رجعة عنها هذا «التوقيت الخاطىء» وأجعل منه «اللحظة المناسبة» وأكمل طريق حياتي بصفاء روح لم تُخدش بعد.

24

يظن أهل الشام أن جمرات ثلاث تسقط في شهر شباط على البشر والحجر. فالجمرة الأولى في 5 شباط، وهي جمرة الهواء التي تجعل الهواء دافئاً. والثانية في 14 شباط، جمرة الماء التي تجعل الماء دافئاً. والثالثة في 21 شباط، جمرة الأرض التي تجعلها تفور بالدفء. وهم لا يكتفون بذلك وإنما يعددون ظواهره التي تختلف عن بقية أشهر السنة. فهو شهر ناقص في عدد أيامه، قصير النفس، متقلب المزاج، فيه يكثر مواء القطط ويعلو ليتحول إلى ما يشبه الأنين المتقطع الذي يقترب في كثير من الأحيان من النطق البشري، وهذا في بداية الشهر.

إنهم أيضاً يقولون إن القسم الثاني من فصل الشتاء إنما يسمى الخمسينية التي تبدأ من أول هذا الشهر وحتى إلى ما بعد منتصف آذار. ثم يقسمون هذه الخمسينية إلى أربعة أقسام متساوية زمنياً، كل قسم فيها يتجاوز الاثني عشر يوماً بنصف يوم وسموها (السعود) الأربعة. ولهذه التسمية قصة ككل شيء في هذه البقعة العريقة من العالم. يظنون أنه في أيام الدولة الأموية كان هناك رجل اسمه سعد يجوب بلاد الشام ليوصل البريد على ظهر الخيل والإبل. ومرة خرج سعد ببريده في أوائل شهر شباط من مدينة دمشق بينما الأمطار والعواصف تنزل مثل زخ السهام

المنطلقة كلها دفعة واحدة، فلم يكن منه إلا أن ذبح ناقته واختبأ في داخلها فسميت هذه الفترة من الشهر بـ «سعد الذابح». لكنه عندما جاع في الفترة التالية أخذ يأكل من لحم الناقة التي ذبحها فسميت «سعد البالع» تماماً مثل الأرض التي تبتلع كل ماء المطر الذي يهطل في الفترة الأولى. بعد ذلك، وحينما بدأ الدفء يغزو قلب الدنيا وتتمطى الحرارة في أرجائها وتأخذ الطبيعة الخضراء بامتصاص الماء المختزن في باطن الأرض، سميت الفترة «سعد السعود» لأنه نجا بنفسه من وابل المطر وقصف الريح الباردة. لكن الدفء يحرض على الخروج وهجر المخابىء فتترك الحيوانات أوكارها وتبدأ بالظهور لكي تبحث عن عيشها، فسميت هذه الفترة «سعد الخبايا».

في 14 شباط سقطت جمرة الماء على بلاد الشام لتطفئ النار المشتعلة فيها. إن هذا التاريخ هو تماماً نهاية فترة «سعد ذابح» اليوم الذي قتل فيه «رفيق الحريري»، وبداية «سعد بالع» الذي سيستمر حتى يوم 25. وبين الـ 14 والـ 25 انزاحت بيروت من مكانها مرات ثم عادت ودارت على أعقابها وصالت وجالت ونادت وصرخت وشتمت وبكت وصلت وتوسلت وهددت وتوعدت وقبلت وركعت وانتفضت.

واليوم سدت المظاهرات أبواب المدينة المنهكة. لقد خرج الفريق الذي اتهم سوريا إلى ساحة الشهداء، خرج بكل ما لديه من غضب وأعلام لبنانية كانت ترفرف فوق رؤوس أكثر من مليون رجل وامرأة انفلت غضبهم وحميتهم الوطنية مطالبين الجيش السوري الخروج من البلد. أما في داخل البرلمان فكان الغيظ المكتوم من نوع أكثر انضباطاً وتحايلاً على الديمقراطية. لقد طلبت شقيقة المغدور من رئيس الحكومة التنحي في الحال طالما أن هذه الجريمة وقعت في الفترة التي يتولى فيها رئاستها ملحمة

من بعيد إلى تواطؤ أجهزته وأجهزة حلفائه. سارع عمر بك كرامي مصدوماً إلى تقديم استقالته ليس استجابة لها وإنما للشارع الذي خاف أن يفقد ثقته إلى الأبد. فلقد اتصل به شقيقه ليخبره أنه يُشتم ويُنتقد حتى في المساجد الموالية له في طرابلس، وهكذا أسقط في يده، فترك البرلمان بعد أن اختفت ابتسامته الهادئة عن وجهه الذي عرف كيف يخفي عصبية مزاجه وعناد لا يتزعزع في القناعات.

القلوب المكسورة أخذت تتساقط على جهتي الحدود مثل المطر. قلوب كثيرة تداعت غطت إسفلت ساحة الشهداء وكل لبنان.. قلوب منفرطة غطت سوريا من بابها لمحرابها وفاضت. أصبحنا نحتاج جيشاً من «عمال التنظيفات» لكي يكنسوا البلد من بقايا وليمة الحب التي انتهت للتو في «سعد السعود». لقد أتى الطلاق هذه المرة مدوياً ومستعراً فاق كل حد. لم يقبلا حتى الإصغاء لبعضهما البعض وبدا أن لعبة الحوار بحاجة إلى باع طويل ومقدرة تتجاوز حالتيهما المضطربتين.

لقد رأيت مرات كثيرة نفسي معلقة في الهواء على وشك السقوط أو على شفا هاوية. ومرات أخرى كنت أقف على مفترق طرق وقد أربكتني الحيرة، ولطالما، في مثل هذه اللحظات، كنت أشعر بقوة داخلية تحضر لترشدني إلى الدرب الذي عليّ أن أسلكه أو تدفع بي عن الحافة، ولطالما بعد أن أتنفس الصعداء في مكان آمن، ما أتساءل من أين أتت هذه القوة الحكيمة فمدتني بخشبة الخلاص!

لكثرة ما ترددت هذه القوة الصديقة في داخلي وحضرت في كل مرة أطلبها، ولكثرة ما استنتجت أن هاتين العينين اللتين تنظران إليّ في عتمة قراري ما هما إلا عينان شبيهتان، أخذت أنتقل بتؤدة وصفاء لا حد لهما من هذا التعلق القلبي بالأشياء التي أحبها إلى الحب ذاته، ومن أمور حياتي الجميلة إلى عشق الجمال

بذاته، ومن الولع بما هو حقيقي إلى الإيمان بالحقيقة لذاتها، ومن الإفتتان بالمتع الصغيرة إلى البحث عن فهم صميمي للسعادة. وها أنذا في هذه اللحظة أقف على ضفة الحب الأكبر الكلي الذي لا يمكن أن أعثر عليه في حب شخص واحد بذاته، ولا يمكن أن أعيد اكتشافه في كل مرة وأنا مبهورة، من خلال الخداع وخيبات الأمل التي تزهر في الحب الآني المكتفي والمشروط، حب الشخص الواحد، وذلك لأن طبيعة الحب الأكبر إنما تمتلئ بالرجاء، الرجاء الذي يتطلع دائماً إلى المستقبل. الحب الأكبر لا يتعب من أن يرجو ولا يكل من الديمومة بينما قلق العشق المؤقت لا يشفي غليلي ولا كذلك الحقيقة المجتزأة.

قد يفهم حازم هذا الكلام وقد لا يفهمه، لكن جواد سيفهمه حتماً وإن كان على مضض. أما أهلي والآخرون فلن يفهموا البتة أن هذا الموقف الوجداني هو تماماً وراء انسحابي من العلاقة التي هي على وشك الاكتمال بالزواج. سوف يظنون أني أخفي سبباً رئيسياً أكبر من هذا الهذر، سبباً «حقيقياً» وليس مجرد رأي «لا يقدمِ ولا يؤخر» بشيء. وقد يرمونني بالمجنونة التي تضيع «الفرصة الأخيرة» أو «الفرصة الأفضل». لقد رددوا على مسامعي عبارة «عريس لقطة» عشرات المرات بينما كانوا يقنعوني بالعدول عن «الانتحار» والانسياق وراء «الوهم». قالوا إن هناك آلاف بل مئات الآلاف من العائلات المشتركة بين البلدين. هل يعني هذا طلاقهم جميعاً أو انفصالهم بسبب موت الرجل؟ قالوا إن هناك قدر يجمع البلدين بشريان الأنهار وسلاسل الجبال الممتدة التي تقيد الاثنين كتوأمين سيامين لا ينفصلان. قالوا إن سحنتنا متشابهة وطعامنا متشابه وعاداتنا متشابهة. حتى شتائمنا وصلواتنا إلى الله وعبارات التشفي والحب والمزاح متشابهة. قالوا الكثير، فهل يعني انتهاء كل هذا بسبب موت الرجل؟؟

ولكن، وبينما هم يتحدثون عن كل هذه الأمور، كنت أسال وماذا عن الروح؟ روحي أنا التي كانت ترغب في شيء آخر تماماً. روحي الواعية والمتألمة في آن، روحي التي لوثها تاريخ بلاد الشام الواحد الأحد بأساطيره الكثيرة وزلازله وهذا الافتتان المرضي به.

25

حضر حازم إلى اللاذقية من دون أن يعلمني. فتحت له الباب وتسمرت أمامه:

- ألن تدعيني إلى الدخول؟

جلسنا في صالون المنزل صامتين يتطلع الواحد منا إلى الآخر بهدوء مترقب وفجأة قال:

- أريد أن أفهم ماذا يحدث!!!... لا أريد أن أصدق أن رفيق الحريري هو السبب وراء انفصالنا! هذا جنون مطبق. أنا.. أنا لا أفهم كيف تحللين الأمور... كيف ترينها..!! ما هي اعتباراتك؟ أولوياتك؟؟ لماذا لا تكونين من صفي!! أنا لا آمرك بذلك.. أنا أطلب منك أن تكوني معي. دعينا نتزوج وبعدها ستقررين أنت بنفسك ما يروق لمصالحك، لمصالحنا معاً. أنت تبيعين الحب هكذا بكل قساوة قلب. تستدخلين أسباباً خارجة عن إرادتنا... أنا.. أنا حتى لم أعد أعرفك؟؟ لا أريد عرساً بعد الآن... الورقة ها هي في جيبي.. لا تنشغلي بأية تحضيرات.. دعينا نتزوج اليوم.. الآن.. ببنطال الجينز.. ونرحل من هنا فوراً.. لنغلق الباب على كل شيء ولنفكر في مستقبلنا معاً.......................... أرجوك يا مريم (يقولها همساً وبرجاء) عودي معي إلى بيروت.. الآن... الآن.

لم يناور حازم أكثر في الحب. قال كل ما في قلبه دفعة واحدة. سوف يكتفي بكتابة آرائه ونشرها والمواظبة على المشاركة في المقابلات التلفزيونية السياسية وحضور السهرات الخاصة التي تسمح له ببعض الخبطات الصحفية في اليوم التالي. فسحنته الأرستقراطية الخارجية التي توحي بالدبلوماسية والسرية لا تمت بصلة لطبيعته، وميله للمماحكة لا ينطوي على أي شيء من اللف والدوران، وهذه المسافة التي لا يعرف كيف يتركها دائماً بينه وبين الآخرين لن تجعل منه رجل حرب يرتفع فوق جثث خصومة ويبرع في سفك الدماء. لن يمر حازم في أي «مطهر» لاحق. فلقد نزلت منه آخر قطرة أمامي.. بدا واضحاً مثل الشمس بكل أبعاده. هكذا هو وهكذا يفكر وهكذا يحبني وهكذا غادر اللاذقية بعد أن لبس في أصبعه الصغير الخاتم الذي قدمه لي في حريصا أمام تمثال السيدة العذراء. لقد ترك لي إرثاً من الرسائل النصية والصوتية على هاتفي الجوال وكذلك في بريدي الالكتروني لن يمحوها زر الـ «delete» لاحقاً ليس بسبب هذا الموقف الاحتفالي الصامت الذي نشعر به بعد نهاية كل قصة حب: «ستبقى في قلبي للأبد»، وإنما لأنه لم يُمح أي شيء وقع بين البلدين منذ آلاف السنين والى هذه اللحظة ولا حتى سقوط شعرة صغيرة من رأس طفل.

عاد حازم إلى بيروت بعد ساعة من لقائنا. لم يستطع أن ينتظر أكثر «طالما هذا هو موقفك» كما قال لي. لقد عاد من دون جان دارك هذه المرة التي هزت نبوءتها إيمانه الذي أسست له الحرب الأهلية وميل دفين تجاه الحلفاء الطيفيين.. حتى قمر بحر طرابلس كان مخفياً وراء غيوم كثيرة وسحب ماطرة سوداء وكذلك بحر بيروت. عاد بحمولة كبيرة من سوء الفهم والغضب وعدم القبول. أعرف أنه اتصل بمحاميه مارك اسكندر حالما اجتاز

الحدود، وأن هذا الأخير سيعرف من الآن وصاعداً كيف يخفف من أعباء صديقه العاطفية بقوله «السوريون أكانوا عمالاً أم شركاء بدهم حلم الله.. من الآن وصاعدا أبقيني قريباً من قراراتك». فمارك، هذا الشاب الرياضي ذو الشعر الأحمر الجعدي الممتلىء بالطموح يرى كل شيء وكأنه انتحار خادمة من شرفة بيت مخدوميها؛ جل ما يمكن أن يقدمه هو تأمين إرسال تابوتها بالطائرة إلى أهلها بشكل نظامي. أما الأب جوزيف فسوف يلوذ بالصمت مع هزة رأس حكيمة وسيطلب منه بوداعة كاهن متفهم «أن يصلي لراحة نفسي وراحة نفس البلدين...» ضارباً بقبضته، قبضة الحرب، بخفة على طاولة مكتبه، وسوف يكتفي بالتربيت على كتفه وقد علت وجهه ابتسامة لاهوتية مستحدثة لم يؤثث لها الاقتتال الأهلي القديم فقط وإنما الجريمة الأخيرة وسيسر له في أذنه وهو يودعه أمام باب مكتبه في الدير المعزول بين الأشجار «الأفضل أن تكون خياراتك القادمة محلية... نحن وهم لن نلتقي أبداً.... ولا حتى في الحب».

نمت تلك الليلة على هذه الهواجس وأنا أشم من جديد رائحة التاريخ المحترق لأصحو على رسالة جواد الذي لا يعرف كيف يوقف تدفق اعترافاته في كل مرة ولا نهر مفاجآته التعبيرية:

«... كأن سمة الانتظار مرهونة للعربي.... تجعليني أنتظر كثيراً يا مريم. ألا يكفي الانتظار الكبير.. انتظار العودة!؟... تظنين أني توحدت مع مكاني الجديد ها هنا في ليون! تظنين أني أتنقل من الجامعة إلى منزلي في ضواحي المدينة سعيداً بنمط حياتي الراقية! تظنين أني أكتب في غرفة مكتبي المكيف المليء بالكتب بينما الغليون في فمي مثل كل مثقفي المهجر المتفرنسين أو المتأمركين! أنا عصي على التوطين ولا مانع لدي أن أكمل رحلة الانتظار إلى آخرها.... أقول هذا كل يوم لطلابي.. أقوله لهم كل

يوم، للفرنسيين، للعرب ولليهود.. لهم جميعاً أقول إني مواطن زائر، مهجر مرتين ومنكوب مرتين وإني متروك يوم هجرت من بلدي ويوم ولدت في المخيم في لبنان ويوم تخلت المنظمات عني ويوم وقعت معاهدات السلام ويوم (أوسلو) وكل يوم تكون فيها عودتي تحت رحمة المفاوض الإسرائيلي..! لقد قطع الانتظار إحدى قدمي.. ولن أبخل بالثانية إن كان ثمنه العودة... اكتبي لي..».

«انتهت علاقتي بحازم يا جواد ولكنها لم تنته مع بيروت... لقد أحببت المدينة أكثر منه. أحببتها بما يفوق الوصف. إني حتى كنت أخاف عليها من علاقتي به.. علاقتنا كانت ستشوهها أكثر، ستترك ندوباً جديدة على بشرتها الجميلة وعلى قلبها الضعيف. لا أريد لسهام أخرى أن تُغرس في هذا القلب المرهق حتى ولو كانت سهام الحب الطائشة. الحب المنكوب يجعل علاقتنا بالوطن أبشع... من أنهك بيروت سوى العشاق الكثر وسهامهم الطائشة التي استقرت في منتصف القلب؟ لهذا يا صديقي العزيز.. انتظره وانتظرها ولا تكل أو تمل.. ففي الانتظار وطن بديل».

«....... تأمرين بالمزيد من الانتظار يا مريم. حسناً، أتعلمين، يكاد يصل المنتظر إلى مستوى الشهيد. كنت أسمعهم يرددون من أدبيات الدين «إن أحب الأعمال إلى الله انتظار الفرج»... في الانتظار شيء من القدسية والإخلاص الشديدين. الانتظار جهاد يا مريم. ترى ماذا نفعل كل يوم سوى الانتظار المكفن بالعيش وعاديات الحياة؟؟..... سأنتظر».

26

طار خاتما زواج في الهواء بخفة واندفاع ثم سقطا فوق ضواحي بيروت باتجاه الطريق المؤدية إلى البقاع.... طارا فوق عالية وسهل عكار وكل الطرق التي تصلهما بالشام، طارا فوق قوافل شاحنات الجيش السوري المغادرة باتجاه الحدود. لقد رحلوا فجراً بعد أن نقلوا أغراضهم وأخلوا مواقعهم تاركين وراءهم حمولة عاطفية عمرها ثلاثون عاماً واعترافاً قسرياً لا رجعة عنه بالاتفاقيات التي حولت البلاد إلى شظايا غير متساوية. لربما عثرت هذه الشاحنات وهي تجتاز الحدود على أطفال لبنانيين عائدين من مدارسهم السورية سيراً على الاقدام أو حيوانات حفظت الطريق عن ظهر قلب، تنقل على ظهورها السلع المتنوعة في الاتجاهين. سوف يعثرون أيضاً على القرى المتداخلة والأراضي الزراعية والكثير من المنافذ البرية في الأودية الشديدة الانحدار والوعورة، وكذلك على حصيرة المصالح المتشابكة والمشاعر والهموم الواحدة وعلى المصاهرة والقرابة والانساب المشتركة. سوف يعثرون على المهربين، فهذه الطرق ومسالكها الترابية الجبلية تجعل من ضبط التهريب أمراً صعباً جداً. حتى الفلسطينيون عثروا فيها على ضالتهم. لقد كانت تسمى هذه المنطقة فيما مضى «فتح لاند» وذلك لأن رجال منظمة التحرير الفلسطينية والمسلحين الفلسطينيين كانوا يصولون ويجولون فيها

بكل حرية في بداية السبعينات وينتقلون عبر الحدود ممررين على ظهر الحمير والبغال الأسلحة والذخائر والمقاتلين.

سوف تجتاز هذه الشاحنات العسكرية حدوداً افتراضية كمن يحرث المياه، إنها افتراضية لا بسبب من التاريخ فقط ولكن لأن الإسرائيليين هناك يطلون على 360 كلم تمتد من بلدة شبعا ومزارعها المحتلة في الجنوب الشرقي، مروراً بسلسلة جبال لبنان الشرقية وسهول البقاع وصولاً إلى قرى وادي خالد والنهر الكبير الجنوبي في أقصى الشمال.

سوف تمر قافلة الشاحنات المغادرة بالقرب من المزارعين اللبنانيين والسوريين على طرفي الحدود يحملون غلالهم وينزلون أخرى وبمئات الأسلاك الكهربائية التي تمتد في الاتجاهين مجتازة الحدود لكي تنير البيوت هنا وهناك وبملايين الخطوط السلكية واللاسلكية التي تنقل تمنيات الأحبة وصرخات الفرح أو دموع المشاركة وهمس العشاق.. ستمر هذه القوافل العسكرية عائدة وقد استكان في صرير عجلاتها ثلاثون عاماً من التيه والحب.

الملحق

كرونولوجيا التاريخ والحرب والاغتيال

كرونولوجيا لأهم الاحداث في بلاد الشام:

6500 ق. م: أوغاريت أول حاضرة موجودة.

الألفية الرابعة قبل الميلاد: الآثار الأولى لوجود حواضر مدنية بالقرب من دمشق.

2900 ق.م.: ظهور مركز تجاري في شرق سوريا في مدينة ماري.

2600 ق. م: ظهور مركز تجاري في شمال سوريا في مدينة إيبلا ليصبح منافساً لمركز ماري.

2000 ق. م: العموريون والكنعانيون يستقرون على الساحل السوري ويؤسسون مراكز مدنية لهم مثل صور وصيدا. كما أنهم أدخلوا اختراعات إلى هذه المنطقة مثل العجلات والكتابة.

1200 ق.م.: الفينيقيون يخترعون الأبجدية واللون الأرجواني الصوري الذي كان جزءاً من تجارتهم.

حوالي 1200 ق.م.: هجرة الآراميين إلى سوريا حيث أسسوا مملكة صغيرة في وسط وشمال سوريا (كنعان). مدينتهم الأساسية آرام موجودة في منطقة قرب دمشق الحالية.

حوالي 1180 ق. م: تهاجم شعوب البحر مدينة أوغاريت الكنعانية وبقية الحواضر الساحلية الأخرى. كان الدمار ساحقاً بحيث لم يبق من المدينة سوى أطلالها.

64 م: سوريا السلوقية أصبحت مقاطعة رومانية على يد بومباي الأكبر وبدء مرحلة هامة من الازدهار. وأغريبا يغزو بيروت التي تسمى المدينة شرفيا بحسب اسم ابنة الإمبراطور جوليا: Colonia Julia Augusta Felix Berytus

50 م: يبدأ القديس بولس ثالث رحلاته التبشيرية في صور.

41 م: يشكل تلاميذ المسيح جماعات في الشتات خصوصاً في دمشق ويطلق عليهم لأول مرة اسم مسيحيون.

القرن الثاني للميلاد: تنامي المسيحية في سوريا وتحولها إلى دين قوي.

313 م: الإمبراطورية الرومانية تعترف بالمسيحية وتبدأ ببناء الكنائس في سوريا كلها.

451 م : المارونيون، وهم طائفة مسيحية كنيت بحسب اسم القديس يوحنا مارون، يلجؤون إلى جبال لبنان.

630 م: المردة، وهم مجموعة من الجماعات المارونية المستقلة، تقطن جبل لبنان وفي أطراف المرتفعات بعد الفتح الإسلامي لسوريا.

632 ـ 634 م: أتباع الرسول محمد ينطلقون في الجهاد ضد غير المسلمين والخليفة أبو بكر يُدخل الإسلام إلى المناطق المحيطة بلبنان.

661 م: بعد معركة اليرموك، يعين الخليفة عمر، معاوية، مؤسس الدولة الأموية، حاكماً على سوريا وهي المنطقة التي تشتمل اليوم على لبنان الرسمي.

695 م: اعتماد اللغة العربية في كل المعاملات داخل الإمبراطورية الأموية بدلاً من اليونانية والفارسية وتشيع أهل جبل عامل في جنوب لبنان .

759 م: عصيان مُجهض قام به سكان الجبل اللبنانيون ضد الحكم العباسي بعد معاملتهم السيئة للشعب الذي يعيش في المنطقة التي تشتمل على سوريا ولبنان اليوم.

970 م: الفاطميون يستقرون في مصر ويمدون سيطرتهم على المنطقة الساحلية لبلاد الشام ودمشق.

986 م: تحت حكم الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله، يولد دين جديد وينتشر على يد رجل يدعى الدرازي. لقد كانت هذه بداية الدين الدرزي وانتشاره في عدة مناطق لبنانية.

1054 م : الإنشقاق الكبير بين الكنيسة الغربية الكاثوليكية والشرقية الأورثوذكسية أيام البابا ليون التاسع.

1109 م: سقوط طرابلس الشام بيد الصليبيين وتحويل المدينة وكل ما يحيط بها إلى مقاطعة.

1154 م: نور الدين يحتل دمشق ويوحد سوريا كلها تحت حكم واحد.

1174 م: صلاح الدين الأيوبي يستعيد دمشق.

1250 م: فرنسا تتعهد بحماية الموارنة بوثيقة موقعة من الملك لويس التاسع - نهاية الحكم الصليبي وبداية حكم المماليك - استيطان شيعة سوريا والعراق والجزيرة العربية مناطق شمال البقاع وكسروان والجبال شمالي بيروت.

1291 م: المسلمون الشيعة والدروز في لبنان يعلنون العصيان ضد المماليك الذين كانوا منشغلين بمحاربة الصليبيين والمغول.

1342 م: بطريرك انطاكية ينتقل إلى دمشق تحت اسم اغناطيوس الثاني.

1516 م: السلطان العثماني سليم الأول يمنح الأمير فخر الدين المعني سلطة شبه مستقلة على لبنان.

1570 ـ 1622 م: وصول فترة حكم المعنيين إلى ذروتها مع فخر الدين المعني الثاني ووقوع معركة عنجر بالقرب من مجدل عنجر بين جيش فخر الدين المعني الثاني والجيش العثماني الذي كان يقوده حاكم دمشق مصطفى باشا.

1832 م: احتلال القوات المصرية لدمشق وغزو ابراهيم بن محمد علي باشا للبنان .

1834 م: نقلت الإرسالية الأميركية مطبعتها من مالطا إلى بيروت.

1841 م: الصراع بين الموارنة والدروز ينفجر. ثورة الموارنة ضد طبقة الإقطاع الفاسدة واستمرار الثورة حتى عام 1858.

1847 أسس اليسوعيون مطبعتهم (وهي أول مطبعة في بلاد الشام) في بيروت .

1860: مذبحة المسيحيين في دمشق حيث قام المسلمون بمعونة الجنود الأتراك بقتل بضعة آلاف من المسيحيين وإحراق منازلهم . لقد أعطت هذه المذابح الفرنسيين المبرر للتدخل السياسي والعسكري.

1866 م: إنشاء الكلية السورية الإنجيلية التي أصبحت الجامعة الأميركية في بيروت من قبل الإرسالية الأميركية.

1869: فتح قناة السويس تسبب ضربة لأهمية سوريا الاقتصادية.

1875 م: إنشاء جامعة القديس يوسف من قبل اليسوعيين وهي ما يسمى اليوم الجامعة اليسوعية في بيروت.

1916 م: اتفاقية سايكس ـ بيكو التقسيمية بين بريطانيا وفرنسا والتي قسمت بموجبها بلاد الهلال الخصيب (بلاد الشام والعراق) إلى مناطق انتداب تقاسمتها القوى العظمى. وقعت سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي.

1917 م: تصريح وعد بلفور ـ الذي أصدرته الحكومة البريطانية ـ الذي وعد بإنشاء دولة قومية مستقلة لليهود في فلسطين.

1918 م: الفصائل العربية بقيادة الأمير فيصل، ابن الشريف حسين، مدعومة من القوات البريطانية بقيادة الجنرال اللنبي تدخل دمشق وتنهي 400 عام من السيطرة العثمانية، ثم تنتقل إلى فلسطين وتفتح الطريق لاحتلال لبنان وبداية الحديث عن ترسيم الحدود في هذه المنطقة بعد تقطيعها.

1920 م: المجلس الوطني يعين الأمير فيصل ملكاً على سوريا كلها «بحدودها الطبيعية»، من جبال طوروس في تركيا وحتى صحراء سيناء في مصر. في العام نفسه تضع فرنسا يدها على الأراضي اللبنانية بعد مؤتمر سان ريمو وتعلن «دولة لبنان الكبير» وترسم حدودها (بضم الساحل والبقاع والجنوب إلى جبل لبنان) ثم تحتل دمشق وترغم الملك فيصل على الفرار خارج البلاد وتقسم سوريا إلى ثلاث مناطق مستقلة مع مناطق منفصلة للعلويين في الساحل والدروز في الجنوب.

1936 م: توافق فرنسا على استقلال سوريا مبدئياً ولكنها توقع اتفاقاً تكرس فيه هيمنتها العسكرية والاقتصادية على البلد.

1943 م: استقلال لبنان بعد ضغط محلي وعالمي.

1946 م: آخر القطعات الفرنسية تغادر سوريا.

1948 م: الاحتلال الصهيوني الأول لفلسطين وإعلان دولة إسرائيل وبداية تهجير اللاجئين الفلسطينيين إلى لبنان. شكّل مجموع

اللاجئين في الهجرة الأولى حوالي المئة ألف فلسطيني إلى الجنوب اللبناني.

1949 م: اتفاقية الهدنة بين لبنان وإسرائيل في رودس.

1951: اعتمدت الأونروا UNRWA «وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين التابعة لهيئة الامم المتحدة» تعريف اللاجئ الفلسطيني بأنه الشخص الذي كان مسكنه في فلسطين لعامين سبقا احتلال 1948 والذي نتيجته أنه خسر منزله ووسائل عيشه ولجأ إلى البلدان التي تكفل الوكالة فيه الإغاثة.

1956 م: العدوان الثلاثي على مصر (الجولة العربية ـ الإسرائيلية الثانية) ووصول أعداد أخرى من اللاجئين الفلسطينيين إلى لبنان في أعقاب العدوان الثلاثي على مصر قدرت بخمسة آلاف فلسطيني، منحتهم السلطات اللبنانية حق الإقامة لكنهم حرموا من خدمات الأونروا لعدم قبولها نقل سجلاتهم من غزة إلى لبنان، لكن أوضاعهم سويت لاحقاً بين عامي 1962 و1969.

1958 م: الوحدة بين سوريا ومصر وترؤس جمال عبد الناصر للجمهورية المتحدة. اندلاع الحرب الأهلية اللبنانية التي لم تدم كثيراً بعد تدخل 5000 جندي من البحرية الأمريكية بأمر من الرئيس إيزنهاور وبناءاً على طلب الرئيس اللبناني كميل شمعون.

1958 م: يجمع أغلب الباحثين على أن تأسس حركة فتح قد تم في اللقاء الأول بين مجموعات من الشباب الفلسطيني في الكويت في تشرين أول عام 1958م حيث أسسوا القاعدة التنظيمية الأولى حركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح).

1964 م: قضية تحويل مجرى نهر الأردن وبداية مؤتمرات القمة العربية.

1964 م: تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية في أيار (مايو) 1964 في القدس.

1967 م: القوات الإسرائيلية تحتل مرتفعات الجولات السورية خلال حرب الأيام الستة. (الجولة العربية - الإسرائيلية الثالثة) وتزايد وجود المقاومة الفلسطينية على أرض لبنان بعد النكسة.

1969 م: نشاط مكثف للعمل الفدائي الفلسطيني - مهاجمة إسرائيل لمطار بيروت - تضييق السلطات اللبنانية القيود على العمل الفلسطيني (معارك بين الجيش اللبناني والفدائيين الفلسطينيين)، اتفاق القاهرة بين منظمة التحرير والحكومة اللبنانية تم بموجبه الاتفاق على حق العمل والإقامة والتنقل للاجئين الفلسطينيين المقيمين في لبنان، وبمقتضاه تنشأ لجان من الفلسطينيين في المخيمات لرعاية مصالح اللاجئين بالتعاون مع السلطات المحلية.

1970: تصادم بين السلطات الأردنية والمقاومة الفلسطينية فيما عرف بأيلول الأسود أدى إلى القضاء على الوجود الفلسطيني المسلح في الأردن في صيف 1971 في معارك الأحراش وانتقاله إلى لبنان. قمة القاهرة التي أسفرت عن عقد مصالحة بين عاهل الأردن الملك حسين ورئيس منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات .

1970 م: صعود حافظ الأسد إلى سدة الرئاسة السورية.

1971 م: اختراق إسرائيل الحدود اللبنانية، لضرب المقاومة الفلسطينية.

1973 م: الجولة العربية - الإسرائيلية الرابعة.

1975 م: حادث عين الرمانة وبداية الحرب الأهلية اللبنانية.

1976: دخول الجيش السوري إلى لبنان خلال الحرب الأهلية للتهدئة وللإبقاء على الموازنة في السلطة.

1978 م: العدوان الإسرائيلي على لبنان، «حملة الليطاني» وصدور القرار الرقم 425 عن مجلس الأمن واستكمال إسرائيل السيطرة على الجنوب اللبناني ومواجهة بين القوات الدولية والمقاومة الفلسطينية في صيدا.

1981 م: إسرائيل تغزو لبنان وتهاجم الجيش السوري فيها وكذلك منظمة التحرير في بيروت (حرب حزيران). احتلال مرتفعات الجولان من قبل إسرائيل.

1982 م: الاجتياح الإسرائيلي للبنان أسفر عن إجبار منظمة التحرير الفلسطينية على الخروج من لبنان ونقل مؤسساتها العسكرية إلى تونس ومن ثم إغلاق معظم مؤسساتها التي كانت تدعم الكثير من اللاجئين، وفرض على من يرغب البقاء في لبنان الخضوع للسيطرة اللبنانية وكان من نتيجة الاجتياح مذبحة صبرا وشاتيلا.

1983 م: لبنان وإسرائيل تعلنان حالة العداء بينهما بينما تبقى القوات السورية في لبنان وانفجار الوضع العسكري بين الموالين للجنة المركزية والمعارضين لها في حركة فتح ـ ما سمي لاحقاً بانتفاضة فتح ـ في كافة المخيمات وخاصة في مخيمات الشمال اللبناني، وسقوط العديد من القتلى في صفوف المدنيين من اللاجئين الفلسطينيين نتيجة لذلك.

1987 م: الرئيس السوري حافظ يرسل قواته للمرة الثانية إلى بيروت لكي يوقف إطلاق النار فيها، وإلغاء المجلس النيابي اللبناني ما جاء في اتفاق القاهرة الموقع عام 1969 بين الحكومة اللبنانية ومنظمة التحرير الفلسطينية إقراراً

بالحقوق الإنسانية للاجئين الفلسطينيين في لبنان ومن ثم عاد الوضع القانوني للاجئين الفلسطينيين شبيهاً بما كان عليه قبل العام 1969.

1990 م: دخول القوات السورية إلى قصر بعبدا والإطاحة في 13 تشرين الأول بالجنرال ميشيل عون.

1991 م: اشتراك سوريا في مؤتمر السلام في الشرق الأوسط في مدريد وقرار الحكومة اللبنانية بفتح حوار مع الفلسطينيين بشأن الحقوق الاجتماعية للاجئين لكن المفاوضات توقفت.

1993 - 1994: إبرام اتفاق أوسلو بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية الذي رفضه الفلسطينيون في مخيمات اللاجئين في لبنان فرفعوا الأعلام السوداء في مايو/ أيار 1994 احتجاجاً على الاتفاق الإسرائيلي الفلسطيني. شعرت الحكومة اللبنانية بالخطر من أن ينتهي الاتفاق بالتوطين الدائم للاجئين الفلسطينيين في أماكن وجودهم الحالية.

1995: تعديلات وأحكام على القانون اللبناني المنظم لعمل الأجانب شملت أكثر من 70 مهنة لا يحق لغير المواطنين اللبنانيين ممارستها، وضرورة الحصول على رخصة عمل من الجهات المختصة لممارسة أي مهنة. لم تستثن هذه الأحكام الوضع الخاص للاجئين الفلسطينيين في لبنان.

1999 م: المفاوضات حول مرتفعات الجولان تبدأ مع إسرائيل. وصدور قانون لمجلس النواب اللبناني يمنع حق التملك العقاري لمن لا يحمل جنسية صادرة عن دولة معترف بها وترجم على أن الفلسطينيين هم المعنيون بهذا القانون. وتشير بعض الإحصاءات اللبنانية شبه الرسمية إلى أن أكثر من 50% من اللاجئين الفلسطينيين يحصلون على دخل يقل عن 90 دولاراً شهرياً ويعيشون تحت خط الفقر، وتستعيض

الحكومة اللبنانية عن العمالة الفلسطينية الزهيدة بالعمالة السورية الوافدة التي يقدر عددها بأكثر من 100 ألف عامل.

2001 م: القوات السورية تغادر بيروت وتعيد انتشارها في أجزاء أخرى من لبنان.

2004 م: مجلس الأمن يطلب من القوات الأجنبية مغادرة لبنان.

2005 م: مقتل رفيق الحريري رئيس الوزراء اللبناني الأسبق وخروج الجيش السوري من لبنان من نيسان في نفس العام.

كرونولوجيا لشهر شباط / آذار / نيسان منذ اغتيال الحريري وحتى انسحاب الجيش السوري:

الثالث من فبراير/شباط: دعت المعارضة للمرة الأولى سوريا إلى الانسحاب الكامل

14 فبراير/شباط: انفجار ضخم استهدف موكب الحريري في منطقة السان جورج في قلب العاصمة اللبنانية بيروت، فقتل الحريري على الفور وعشرون آخرون بينهم عدد من مرافقيه والمارة كما جرح العشرات.

14 فبراير/شباط: المعارضة تجتمع في منزل الحريري بعد ساعات على اغتياله وتحمل الأجهزة الأمنية اللبنانية وسوريا مسؤولية اغتيال الحريري كما أعلنت المعارضة رفضها مشاركة السلطة في مأتمه.

16 فبراير/شباط: تشييع رفيق الحريري في مأتم شعبي ضخم.

18 فبراير/شباط: المعارضة تجتمع في البريستول وتعلن قيام «انتفاضة الاستقلال» حتى الانسحاب السوري الكامل.

21 فبراير/شباط: وصول فريق لجنة تقصي الحقائق بتكليف من الأمين العام للأمم المتحدة حيث مكثت شهراً في لبنان وأصدرت تقريراً حمل سوريا مسؤولية التوتر الذي سبق اغتيال الحريري. واتهمت الأجهزة الأمنية اللبنانية بتدمير وتزوير أدلة في مسرح الجريمة، كما أوصت بقيام تحقيق دولي.

28 فبراير/شباط: تظاهرات عارمة في ساحة الشهداء شارك فيها عشرات الآلاف واكبت جلسة لمجلس النواب لمناقشة الاغتيالات السياسية بطلب من المعارضة، وعمر كرامي رئيس الحكومة في تلك الفترة يقدم استقالته في الجزء الثاني من الجلسة.

2 مارس/آذار: المعارضة تجتمع في المختارة وتطلب إعلاناً رسمياً سورياً بالانسحاب الكامل وتطالب بإقالة كل قادة الأجهزة الأمنية.

3 مارس/آذار: الرئيس السوري بشار الأسد يعلن في كلمة أمام مجلس الشعب الالتزام بالقرار 1559 (القرار الدولي الذي صدر عن مجلس الأمن في سبتمبر/أيلول عام 2004 ودعا سوريا إلى الانسحاب الكامل من لبنان).

7 مارس/آذار: المجلس الأعلى اللبناني - السوري يجتمع برئاسة الرئيسين السوري واللبناني ويقر إعادة الانتشار وفق اتفاق الطائف أي حتى البقاع في مرحلة أولى.

8 مارس/آذار: مظاهرة حاشدة لحزب الله في ساحة رياض الصلح والسيد حسن نصر الله يشكر الرئيس السوري بشار الأسد على تضحيات سوريا في لبنان.

14 مارس/آذار: في ذكرى مرور شهر على اغتيال الحريري مسيرة مليونية للمعارضة تدعو لخروج سوريا الكامل من لبنان.

16 مـارس/آذار: إعلان الانتهاء من المرحلة الأولى للانسحاب السوري باتجاه البقاع.

16 مـارس/آذار: الرئيس الأمريكي جورج بوش يستقبل في البيت الأبيض البطريرك الماروني نصر الله صفير.

18 مـارس/آذار: انفجار عبوة ناسفة في منطقة (نيو جديدة) قرب بيروت.

23 مـارس/آذار: انفجار عبوة ناسفة في منطقة الكسليك.

26 مـارس/آذار: انفجار ثالث في سد البوشرية.

29 مـارس/آذار: كرامي يعتذر عن تأليف الحكومة بعد لقائه رئيس مجلس النواب اللبناني نبيه بري.

1 أبريل/نيسان: انفجار عبوة ناسفة رابعة في سنتر رزق برمانا.

7 أبريل/نيسان: مجلس الأمن يصدر القرار 1595 القاضي بتشكيل لجنة تحقيق دولية في جريمة اغتيال رفيق الحريري.

14 أبريل/نيسان: نجيب ميقاتي يكلف تشكيل الحكومة.

26 أبريل/نيسان: الواحدة والنصف بعد الظهر سوريا تكمل انسحابها من لبنان.



قانون مريم

«حين أتطلع إلى ...

الفتّان في أراضيه...

بعضها البعض والممتدة من الشمال إلى الجنوب على شكل سلاسل خمسة جميلة، أجد أن لبنان يعبر في أكثر أربع سلاسل أهمية من بينها. إنه هناك يشرف تماماً على الممر السوري - اللبناني - الفلسطيني. حين كنت أتطلع أنا وحازم من حريصا على هذا القسم الضيق من السهل الساحلي السوري، أدركت كم هو صعب عبوره على الفاتحين وكم هو الأكثر أماناً ودفاعاً على المقيمين فيه. أما الجبال القريبة الموازية لهذا الشاطئ فربما هي الأكثر ارتفاعاً في سوريا كلها والأكثر وعورة. ومن أعلى جبال هذه السلسلة الغربية يمكنني أن أطل على وادي البقاع الذي يقف متحكماً من طرفي هذه السلسلة الجنوبية والشمالية بالمعبرين الأساسيين من الساحل إلى الداخل. ليس لبنان بلداً صغيراً. فالقلب هو العضو المتحكم بحياة الجسد كله والمنفتح على كل معابره تماماً كما ينفتح لبنان على بلاد ما بين النهرين والخليج القاري عن طريق فرجة حمص والطريق التي تؤدي من عكا وحيفا وصور وصيدا إلى دمشق والصحراء. إنه في المنتصف كالابن المدلل بين أبويه ونقطة ضعفهما الأولى. أما سلسلته الشرقية فهي المدخل أيضاً إلى الداخل السوري وكل ما عداه عن طريق معبر مجدل عنجر - وادي بردى أو طريق حمص دمشق. ألهذا كان طريق القدس يمر عبر جونية؟ ألهذا كان الطريق إلى دمشق يمر عبر عنجر؟ ألهذا كان لبنان شوكة في الخاصرة الفلسطينية والسورية بأكثر المعاني جغرافية وعاطفية؟».

9 789933 484101